الروحاني
وقصص أخرى

الروحاني وقصص أخرى
أحمد الملواني
تدقيق لغوي: د. إيمان الدواخلي
تصميم الغلاف: أسامة علّام
رقم الإيداع: 2014/22611
I.S.B.N: 978-977-85156-2-6

عصير الكتب للنشر و التوزيع

المدير العام : محمد شوقى
مدير النشر : على حمدى
لجنة فنية : د. إيمان الدواخلى / د.أحمد ابراهيم اسماعيل
د. أحمد السعيد مراد / أ. كمال اليمانى
مدير التوزيع : عمر عباس
التجهيز الفنى : آية سعد الدين
هاتف : 01150636428
E-mail : p.bookjuice@yahoo.com

الطبعة الأولى , 2014م

جميع الحقوق محفوظة©
عصير الكتب للنشر و التوزيع

الروحاني

(وقصص أخرى)

أحمد الملواني

قصص

عصير الكتب
للنشر والتوزيع

عصير الكتب للنشر و التوزيع

صَـفِـيـَّـة

.1.

نفس هذه الغيطان هناك، ونفس هذه السِكة الترابية الضيقة بينها.. من هنا كنت أجري لأراها. كان الوقت ظهرًا، والبلد كلها واقفة على قدم.. الناس يجرون في اتجاه واحد.. والعيال يقطعون الغيطان وشوارع القرية، يبلغون كل من يقابلهم بما شاهدوه. وأمام البيت المتطرف قِبلي القرية، تجمع رجال ونساء وأطفال.. كلهم تركوا مشاغلهم وأعمالهم، وجاءوا ليشاهدوا المعجزة التي حدثنا بعض شباب القرية أنهم شهدوا بأعينهم وقوعها أول مرة ليلة الخميس الماضي. ولكن هذه المرة كنا نهارًا، وضوء الشمس أعطى أهل القرية شجاعة، فتجمعوا تحت ذلك الشباك ينتظرون ما أبلغهم العيال أنه حدث منذ دقيقتين فقط.

عبرت الصفوف إلى الأمام، عندما لمحت ابني سعيد في مقدمة الخلق، ينظر مثلهم نحو الشباك المفتوح دائما، بعد احتراق خشبه في الحريق الذي التهم كل ما في الدار منذ سنين. وضعت يدي على كتفه، وسألته:

. ماذا هناك يا ولد يا سعيد؟

فنظر إلي، وبصوت متقطع مبهور، قال:

. صفية طلت من الشباك.

***

تأمل المخرج وجه القروي العجوز الماثل أمامه بنظرات محايدة تمامًا، يوجهها عقل عملي لا يعنيه صدق أو كذب تلك الأسطورة الريفية، بقدر ما يعنيه الظفر بفيلم تسجيلي مثير، لقناة الأخبار العربية التي يعمل بها. فيلم، يكون من الجودة والإثارة، بالشكل الذي يؤهله للمنافسة على جوائز مهرجان الأفلام التسجيلية والتحقيقات المصورة، الذي تنظمه القناة كل عام، بجوائز يسيل لها اللعاب.

كان المخرج يلعب في نفس الوقت . من وراء الكاميرا . دور المحاور. وفي هذه اللقطة كان حريصًا على أن يتوسط الحاج عباس الكادر، ومن خلفه يظهر ذلك البيت الريفي التقليدي المحترق، وتحديدًا تلك النافذة الصغيرة في الطابق الثاني، والتي لا يظهر من خلفها . حتى في ضوء النهار . سوى ظلام معتم، لحجرة اسودت جدرانها من النيران التي احتوتها منذ عشرات السنين.

. هل رأيتها يا حاج؟

يسأل المخرج من خارج الكادر.. فيطرق القروي رأسه لثوان، ثم يبتسم ملء شدقيه، ويقول:

. ولا مرة.

من جديد يسأل المخرج:

. ولكنك تصدق وجودها.

قال الرجل مبديًا بعض الحرج:

. خلق كثير أقسموا بحياة عيالهم أنهم رأوها.. ناس من أكابر البلد، وأفضلهم.. علم وأخلاق.. فكيف لا أصدق؟

. أين تظهر بالتحديد؟

التفت إلى حيث الدار خلفه، مشيرًا بذراع ممدودة إلى ذلك الشباك.. في حين أشار المخرج إلى المصور بأن يرفع الكادر قليلاً، ليظهر الشباك بشكل أوضح.

. دائمًا في هذا الشباك.. ودائمًا . كما يقولون . ترتدي فستانًا أبيض من حرير، وتبدو كالملائكة.

. ولماذا هذا الشباك تحديدًا؟

عاد الحاج عباس يتطلع إلى الكاميرا وهو يقول:

. هذا شباك حجرة نومها.. وفي هذه الحجرة أكلتها النار وهي تحتضن رضيعها الوحيد.

مع ختام جملته، سرت رجفة خاطفة في جسد المصور، استشعرها المخرج الواقف بجواره، فنظر إليه معاتبًا، وأشار إليه بالثبات، حتى لا يفسد الكادر.

. وهل سبق أن تحدثَت مع أحد طوال تلك السنوات؟

صمت الرجل تمامًا ولم يجب، وبدا وكأن السؤال قد دفعه إلى دوامة من التردد.. وكأن هناك ما لا يريد الإفصاح عنه. ولما زاد تردده وشروده، وتحولا إلى ما يشبه السهو، بادره المخرج:

. يا حاج.. أين ذهبت؟

ابتسم الحاج قائلاً:

. لا مؤاخذة يا بني.. العقل شاخ، والذاكرة باتت تخونني.. وبصراحة لا أتذكر إن كان هناك من تحدث معها أم لا.. ولكنها أحيانًا لا تكتفي بمجرد الظهور في النافذة.. أحيانًا تصرخ.. وهناك من رأوها تضحك.. وهناك من قال إنها كانت تبكي وليدها وتنادي باسمه لساعات طويلة.

هنا أشار المخرج إلى المصور بقطع التصوير، في حين تقدم من الحاج عباس وعلى وجهه ابتسامة شكر عريضة.. صافحه بحرارة وهو يقول:

. شكرًا يا حاج على التعاون معنا.

ناصر كان يقف على مقربة يتابع التصوير، هو أمين الشرطة المكلف من نقطة القرية بمرافقة صناع الفيلم ضمانًا لسير عملهم بسلاسة، وإن كان إخلاصه في أداء هذه المهمة لا

يرجع إلى شغفه بعمله وبإطاعة أوامر رؤسائه، وإنما يعود إلى المبلغ الكبير الذي منحه إياه المخرج من باب التشجيع.
المخرج، لما انتهى من الحاج عباس، عاد إلى ناصر بسؤال..

. أين أجد آخر من شاهدها؟

***

أكثر من قطعة أرض حول بيت صفية كان قد تم تبويرها توطئة للبناء عليها والتوسع في مساحة القرية.. ولكن بعد حادثة احتراق هذا المنزل، منذ واحد وعشرين عامًا، وبعد تكرار المشاهدات المزعومة لشبح ساكنته، تركت الأراضي كما هي، ولم يجرؤ أحد على سكنها، وبقيت ملعبًا لصبيان القرية.
ومن هؤلاء الصبية تراص هؤلاء الثلاثة أمام الكاميرا، خلفهم البيت، يقف وحيدًا وسط أرض خالية..

. أنتم آخر من شاهد صفية.. أليس كذلك؟

أجاب الصبي الأكبر سنًا، بابتسامة يكاد يمزق وجهه اتساعها:

. بلى.

سألهم المخرج:

. متى كان هذا؟

بسرعة أجاب نفس الصبي خشية أن يسبقه أحد رفيقيه للإجابة:

. بالأمس.

سأل المخرج، وهو يشير إلى صبي آخر ليتكلم هذه المرة:

. وكيف حدث هذا؟

تكلم الصبي المشار إليه، نافخًا صدره زهوًا:

. هذا يحدث دائمًا.. نحن دائمًا نلعب هنا.. وإذا ما رفع أحدنا عينيه إلى شباكها يراها.

. دائمًا؟!

محرجًا قال نفس الصبي:

. ليس دائمًا.. ولكن كثيرًا.

سألهم المخرج:

. أريدكم إذن أن تنظروا إلى شباك صفية الآن.

التفت الصبية الثلاثة إلى حيث الشباك، وصوت المخرج يصلهم:

. هل يراها أحدكم؟

أعادوا وجوههم إلى الكاميرا وهو يهزون رؤوسهم نفيًا.

انتهى منهم المخرج عند هذا الحد. وراء الكاميرا، كان ناصر يراقب، وبجواره تلك الفتاة..

. ما رأيك؟

سأل ناصر مشيرًا إلى الفتاة. كان المخرج قد أخبره أنه يرغب في التصوير مع فتاة في عمر المراهقة. هز المخرج رأسه بمعنى أنها تصلح. المصور أوقف الفتاة، وقام بضبط الكادر كما يريد المخرج . وقد وضع الدار خلفها كالعادة . ثم أشار إليه بجاهزيته، فأشار إليه المخرج ببدء التصوير..

. هل تخافين صفية؟

ابتسمت الفتاة محرجة، ونظرت إلى أمين الشرطة الواقف خلف الكادر. ناصر أشار إليها مكفهرًا أن تتكلم..

. كثيرًا.

سألها المخرج:

. لماذا؟ هي . كما سمعت . لا تؤذي أحدًا.

. يكفي أنها عفريت.

. ماذا تعرفين عن صفية الإنسانة؟ أقصد قبل موتها.

قالت الفتاة وقد بدأت تتقمصها جدية الحوار:

. لقد كانت صاحبة أمي.. وهي حكت لي كثيرًا عنها.. تقول إنها كانت مثل القمر.. كانت أجمل بنات القرية،

وأكثرهن أدبًا.. كانت خجولة، ولم ير منها أحد إلا كل خير، وكذلك عبد الغني زوجها.

. هل رأيت شبح صفية من قبل؟

. كلا.

. لماذا؟

مرة أخرى استشعرت الفتاة بعض الحرج، وصمتت لفترة مكتفية برسم قسمات وجهها بحمرة الخجل.. قبل أن تقول:

. أنا أصلاً لا أنظر نحو ذلك الشباك أبدًا.

كرر المخرج:

. أبدًا؟!

هزت الفتاة رأسها بالإيجاب، وبدا وكأنها ستكتفي بهذا، ولكنها أضافت فجأة:

. ولكن أحس دائما أنني سأراها إذا ما نظرت إلى الشباك.

سألها المخرج:

. ولماذا لا تريدين رؤيتها؟ أليس لديك ذلك الفضول الأنثوي؟

ابتسمت الفتاة ولم تجب.. فتابع المخرج:

. وماذا لو قلت لك إنني في هذه اللحظة أرى صفية في الشباك خلفك؟

في البدء ابتسمت الفتاة، ثم أفسحت الابتسامة المجال لمسحة من الفزع، وهي تستقرئ الجد في تعبيرات وجه المخرج.

. ولكنها ليست هناك.

قال المخرج:

. وما أدراك؟ ألا تريدين أن تلقي نظرة؟

هزت الفتاة رأسها نافية بعنف، وهي تقول بعصبية:

. كلا.. لا أريد.

عندها ابتسم لها المخرج برقة، معلنًا انتهاءه منها.

***

صب ناصر في ثلاثة أكواب صغيرة الشاي الذي أعده على لهب قوالح الذرة المشتعلة. ناول كوبين للرجلين اللذين افترشا معه تلك الحصيرة على الأرض الترابية، في هذا الموضع الذي اختاره المخرج لتصوير شباك صفية ليلاً.

منذ أكثر من ساعتين قام المصور بتثبيت الكاميرا على القائم الثلاثي، ضبط الكادر بشكل مقرب على الشباك،

وضبط عدسة الكاميرا على وضع التصوير الليلي، وجلس ثلاثتهم على الحصيرة، أمام الدفء المنبعث من النار التي أشعلها ناصر، على أمل النجاح في التقاط صورة حية لذلك الشبح المزعوم. يشربون الشاي الثقيل الذي يعده ناصر، كوبًا وراء الآخر، ولم تزل الليلة تبدو بلا نهاية سوى الفشل.

كان جسد المصور يرتجف، أحيانًا بفعل البرد الذي نجح في خداع النار والتسلل إليهم.. وأحيانًا أخرى، بفعل التوتر الذي يشعر به يفكك أوصاله، وعيناه مثبتتان على ما بدا من الدار في ظلام الليل عبر هذه المسافة، لا يستطيع أن يبعدهما عنه، ولا يستطيع متابعة حديث الرجلين على بعد سنتيمترات معدودة من أذنيه.

كان المخرج يقول وهو يرشف من الكوب الساخن:

. ماذا فعلت بشأن زوج صفية؟

رشف ناصر من كوبه بصوت عال، ثم قال:

. صعب يا بيه.. عبد الغني غادر القرية منذ زمن.. في البدء لم يحتمل إحساس الذنب، لأنه لم يكن موجودًا في الدار وقت الحريق.. ثم بعدها لم يحتمل حديث الناس عن زوجته التي تظهر في الشباك، وتبكي رضيعهما.. فغادر القرية بلا رجعة.

سأله المخرج ضجرًا:

. أنا أعرف كل هذا.. ولكنك أخبرتني أنك ستحاول تدبير لقاء لي معه.

. لقد حاولت.. أقاربه هنا في القرية طلبوه من أجلي على تليفونه.. ولكنه رفض تمامًا.. وبصراحة يا بيه، هو معذور.

زفر المخرج معلنًا عدم رضاه.. وكتأكيد على هذا المعنى، نظر في ساعته وقال:

. لقد قاربت الثالثة صباحًا.. يبدو أنها لن تظهر.

فجأة نهض من مجلسه، وبدا وكأنه يتمشى على مهل باتجاه الدار. قبل أن يبتعد عنهما بمسافة، طلب من المصور أن يسلط عليه الكاميرا. نهض المصور محاولاً نفض الرعشة عن جسده لتنفيذ الطلب، في حين اقترب المخرج من الدار حتى وقف تحت الشباك تمامًا.. وبدأ ينادي:

. صفية.

بدا وكأنه قد فقد عقله، خاصة وهو يحشر سبابتيه في فمه ويطلق صفيرًا عاليًا، مدعمًا به ندائه:

. صفية.

وعندما لم يجد الصفير نفعًا، عبث بيده في الأرض، حتى التقط تلك الحصاة الصغيرة وألقاها عبر الشباك المفتوح. لما

لم يحدث شيئ، استدار موليًا وجهه شطر الكاميرا، وهز كتفيه بمعنى: ماذا أفعل بعد؟

عندها رآه المصور عبر عدسة الكاميرا، ينتفض، ويمسك مؤخرة رأسه، ويدور حول نفسه كالمجنون، وهو يصيح:

. هل رأيتما هذا؟

بسرعة حل المصور الكاميرا من القائم، وحملها متجهًا بها إلى حيث وقف المخرج، يتبعه ناصر..

. ما الذي حدث؟

. لقد ألقى أحدهم بحصاة أصابت رأسي.

سأله المصور:

. من أين جاءت؟

توتر المخرج وهو يقول:

. لا أعرف.

سأله ناصر مبهوتًا:

. أتقصد أنها جاءت من شباك صفية؟

بعصبية صاح المخرج:

. قلت لا أعرف.

فقال المصور:

. فلتلق بواحدة أخرى.

عبث المخرج في التربة من جديد باحثًا عن حصاة، فتبعه صوت المصور مضيفًا:

. حاول أن تجد واحدة مميزة الشكل.

اعتدل المخرج، وفتح كفه أمام الكاميرا متيحًا للمصور التقاط صورة واضحة للحصاة المستقرة فيه.. ثم ألقاها لتعبر الشباك. سلط المصور كاميرته على الشباك في انتظار ما سيحدث.. بعد ثوان نجح في التقاط صورة لتلك الحصاة تعبر الشباك إليهم. التقطها المخرج، ثم وضعها أمام الكاميرا صائحًا:

. إنها هي.. هي نفس الحصاة.

تراجعوا جميعًا للخلف، والمصور يواصل تسليط كاميرته على الشباك.. والمخرج يردد:

. هناك شخص ما بالداخل.

بلهجة صارمة قال ناصر:

. أي شخص يا بيه؟! إنها صفية.

قال له المخرج:

. لماذا لا ندخل لنستكشف الأمر؟

هنا تخلى ناصر عن مسحة الاحترام التي تكسو تعاملاته مع المخرج، وهو يصيح:

. أنت مجنون.

. 2 .

في اليوم التالي، ألح المخرج على استكشاف نقطة هامة؛ هل سبق طوال تلك السنوات أن تحدثت صفية مع أحد؟ في البدء، واجهه صمت تام من الجميع إزاء هذا السؤال.. وبدا وكأن الأمر ينطوي على سر تحرص القرية كلها على إخفائه. حتى ناصر . المرافق المخلص . بدا من الصعب استمالته، بعد أن أعلن صراحة اعتراضه على أسلوب المخرج، الذي يبدو وكأنه يسعى لاستفزاز صفية. تطلب الأمر من المخرج مجهودًا كبيرًا.. الكثير من الاعتذار، والتأكيد على حسن نواياه.. والمزيد من التشجيع المادي المغري.. وفي النهاية تكلم ناصر..

. ما ستسمعه مني ليس للتصوير.. ولن تجد في القرية كلها من يقول هذا الكلام أمام عدساتك.. لذا لن تستطيع أن تقوله في فيلمك، وإلا اتهمناك بالكذب، وشوهنا سمعتك.

أمام لهجة التهديد غير المتوقعة تلك، لم يملك المخرج إلا الانصياع، خاصة وقد أشعره الموقف بقرب وقوفه على

معلومات هامة.. خاصة وهو يعلم أنه لن يعدم الحيلة لاستغلال أية معلومات، بغض النظر عن أية تأكيدات على سريتها.

. قديمًا تحدث إليها أحد المشايخ.. رجل صالح من أولياء الله.. تبرع بأن يقابلها في دارها، وأن يطلب منها أن تغادر القرية.. ولكنه بعد أن خرج من الدار، أخبرنا عن العهد الذي أخذه عليها.

صمت ناصر، ربما ليستمتع بآثار اللهفة على وجه المخرج..

. أي عهد؟

فأجابه ناصر، بعد أن أشعل سيجارة متلذذًا بقوة موقفه:

. صفية لا تريد سوى شيئين.. إذا ما حصلت عليهما فستتركنا وحالنا.. تريد ثوبًا بدل ثوبها الذي احترق.. وتريد رضيعًا بدلاً من رضيعها الذي مات معها.. ربما أنت لا تعرف أن صفية كان يمكن أن تنجو بنفسها، ولكنها فضلت اقتحام النيران لإنقاذ وليدها الذي كان غافيًا في حجرتها، فماتا معًا.

سأله المخرج:

. وكيف التزمتم بهذا العهد؟

. أثواب الحرير الأبيض توضع دائمًا على عتبة باب الدار، هدية من أهل القرية لصفية.

. وماذا عن الرضيع؟

. هذا هو ما لا يحب أهالي القرية أن يتحدثوا بشأنه.. فكلما مات رضيع لأحد أهالي القرية، نحضره متدثرًا بلفائفه، ونضعه على عتبة باب صفية.

شعر المخرج بدوار لحظي.. وهو الذي كان يظن أن لا شيء يمكن أن يثير ذهوله..

. ولكن هذه قسوة.

قال ناصر:

. هل تفضل إذن أن نثير غضب هذا العفريت؟!

بسرعة قال المخرج:

. ولكنكم تؤكدون دومًا أنها ليست مؤذية.

. هي ليست مؤذية لأننا نقوم بدورنا في العهد على أكمل وجه.

. وهل أنتم واثقون من أن هذه.. (الأشياء).. تصل إلى صفية؟

أجابه ناصر:

. دائمًا ما تختفي الأثواب وجثث الرضع في صباح اليوم التالي.. فنحن لا نقدمها لها إلا ليلاً.. وهناك من رأوها كثيرًا تقف في الشباك تحتضن لفائف رضيع وتغني له.

نظر المخرج إلى وجه ناصر لفترة عاجزًا عن الكلام.. في النهاية لم يجد سوى أن يقول ما كان يتردد في ذهنه:

. ولكن هذا مستحيل.

ابتسم ناصر..

. الأمر برمته (مستحيل)، طالما أنك لم تعايشه.

عندها قرر المخرج أن يلقي بآخر طلباته..

. أريد أن أدخل الدار.

***

لم يتوقع المخرج كل ذلك العنف في ردود أفعال أهل القرية. كان خبر رغبته في دخول الدار بمثابة قنبلة ألقيت على القرية، لتقطع كل الخيوط الواهية التي كانت تجذبهم تجاه الصبر المتوجس على ذلك المخرج وما يفعله في قريتهم. ولكن الخبر الذي انتشر، أشعل الجذوات الخامدة، وأظهر ما كان خافيًا، ودفع الجميع للجهر بالعداء.. وصل الأمر إلى حد التجمع لمنعه من دخول الدار؛ حتى إن أحد شباب القرية وقف أمام الباب المسدود بلوح خشبي متهالك، مشهرًا فأسه، صائحًا:

. من سيقترب من هذا الباب، سأقطع ساقيه.

وبرغم تدخل ناصر لتعنيف الشاب وإبعاده عن المكان، إلا أن ولاء ناصر لقريته، ولأسطورتها الخاصة بات أكبر من أي شيء، حتى من نقود المخرج..

. اسمع يا بيه.. عند هذا الحد ينتهي فيلمك.

متوترًا قال المخرج:

. أنا لا أفهم.. لماذا كل هذا؟

صاح به أحد كبراء البلد:

. نحن لن نقبل أن يأتي غريب ويخرق العهد، ويزعج صفية.

هنا صاح المخرج ثائرًا:

. أنا معي تصريح بالتصوير.

سريعًا أجابه ناصر:

. فلنجعل إذًا الباشا الضابط يحكم في الأمر.

ضابط النقطة القروية الصغيرة لم يكن ليغامر بالوقوف في وجه القرية كلها، مستهترًا باحتمال وقوع ثورة شعبية..

. أي شيء ممكن، إلا التلاعب بمقدسات الناس..

هكذا قال الضابط للمخرج على انفراد، ثم أكمل:

. عندك مديرية الأمن.. هم يستطيعون مساعدتك، أما أنا فلا.. أنا أعرف أنك تعمل لجهة ذات نفوذ، وربما تستطيع أن تحصل على مساعدة من هناك.

عاد المخرج بصحبة المصور إلى الفندق الذي يقيمان فيه، في المدينة القريبة من القرية.. أجرى من هناك اتصالاً هاتفيًا بمكتب القناة الرئيسي في القاهرة، فطلبوا منه أن ينتظر إلى الغد، حتى يعدُّوا له كل شيء.

طوال ليلتهما تجنب الرجلان الحديث عن مغامرتهما الوشيكة، عدا دقيقة واحدة خرجا خلالها عن صمتهما، وتحدثا بمبادرة من المصور..

. ماذا تعتقد أننا سنجد داخل الدار؟

أجابه المخرج:

. بقايا أثاث محترق.

صمت المصور قليلاً عندما استشعر أن زميله لا يشاركه القلق.. ولكنه عاد ليقول:

. برأيك، ماذا حدث لجثث الأطفال الرضع أولئك؟

قال المخرج:

. لا أعرف.. ربما يحملهم شخص ما ليدفنهم سرًا.

ساد الصمت لفترة، قبل أن يقرر المخرج حسم النقاش..

. أتخاف من دخول الدار؟

أجابه المصور بعد فترة صمت قصيرة:

. فقط أنا متوجس.

في نفس تلك الليلة، تلقيا اتصالاً من ضابط بمديرية الأمن، أخبرهما أن سيارة جنود صغيرة ستصحبهما غدًا إلى القرية لتأمين قيامهما بمهمتهما. لهجة الرجل كانت صارمة، وهو يخبرهما أنه سيكون أمامهما فقط نصف الساعة لإتمام تصوير ما يريدان، ثم مغادرة القرية بلا عودة إلى الأبد.

***

أدار المصور كاميرته، بعد أن ثبتها فوق كتفه، وبدأ . يسبقه المخرج . في قطع الخطوتين المتبقيتين إلى باب الدار المفتوح.

في البدء كانت تلك الصالة الرحبة.. حيث لا شيء إلا بقايا خشب متفحم، ورماد أسود يكسو الأرض، ورائحة عطن تعبق كل شيء.. والمخرج يثرثر للكاميرا، واصفًا كل ما يراه باستفاضة لا مبرر لها.

بتمهل تجولا في المكان، محاذرين ألا يتجاوزا نصف الساعة المسموح لهما بها.. لذا قال المخرج بعد فترة:

. دعنا نصعد إلى حجرة صفية مباشرة.

كان هناك ذلك السلم الحجري في جانب من الجوانب، يقود مباشرة إلى الطابق العلوي، حيث حجرتين متجاورتين.. بحاسة الاتجاه، أدركا أن تلك اليمنى هي غرفة صفية.

كانت الشمس تتسلل عبر ذلك الشباك الشهير المفتوح.. الذي يبدو أن ما يلقيه من هواء يوميا إلى صدر الغرفة لم ينجح في تبديد الرائحة المقززة المنبعثة من أركانها. والمخرج يقول بصوت يرتجف انبهارًا، وكأن حاسة الشم عنده تعطلت:

. هذه هي الغرفة.. الغرفة التي يسكنها ذلك الشبح منذ أكثر من عشرين عامًا.. الغرف...

قطع المخرج كلامه، عندما شعر بشيء ما يتهشم تحت قدمه.. نظر إلى الأرض عند الموضع الذي احتلته قدمه، فشهق، وتراجع خطوة للخلف.

تلقائيًا، أبعد المصور عينه عن الكاميرا متأملاً ما وجده زميله، فتجمد بدوره لفترة، قبل أن يقول:

. أتريدني أن أصور هذا؟

زفر المخرج طاردًا انفعاله، قبل أن يستعيد طبيعته العملية ويقول:

. بالطبع.. فهذا هو مفتاحنا لاستغلال تلك القصة التي رواها لنا ناصر.

وفجأة استعاد حماسه كاملاً، وهو يقول ضاحكًا:

. دع أهل القرية يفسرون للشرطة كيف وصلت تلك الأشياء إلى هنا.. ودعنا نحن نصنع فيلمنا.

أعاد المصور عينه إلى الكاميرا، وهو يغمغم:

. ولكن هذا يدمر نظريتك.

سأله المخرج:

. ماذا تعني؟

لوهلة انشغل المصور بتصوير تلك العظام البشرية الدقيقة المتناثرة في كل مكان.. والواضح أنها تعود إلى أكثر من طفل رضيع.. فقد نجح عبر عدسة كاميرته في إحصاء ثلاث جماجم صغيرة.. بالإضافة إلى البعض من أثواب الحرير الأبيض المتهرئ ملقاة هنا وهناك.. وفي النهاية قال:

. واضح من هذا أنه لم يكن هناك من يحمل جثث الأطفال ويدفنها، كما استنتجت أنت.. بل أن هناك من أدخلها إلى الدار.. إلى حجرة صفية تحديدًا.

سأله المخرج:

. هل تحاول أن تشير إلى شيء ما؟

أجاب المصور:

. أنا فقط أبدي ملاحظة.

تجاهل المخرج كلام زميله. قطع خطوات أخرى بين أركان الغرفة متأملاً، متفاديًا سقوط قدمه على العظام المتناثرة. اقترب من الشباك، وعندما أطل منه، لاحظ الأعناق المشرئبة للقرويين المتجمعين أسفله، محتجزين خلف سياج بشري من أجساد الجنود. أشار إليهم بمعنى أن كل شيء بخير، فناداه ضابط الشرطة:

. هل انتهيتم؟

أجابه المخرج:

. أمهلنا خمس دقائق فقط.

ثم استدار عائدًا ببصره إلى داخل الحجرة، فوجدها خالية من زميله.. شعر بقلق مبهم، سرعان ما تحول إلى خوف حقيقي، عندما وجد باب الغرفة مغلقًا عليه.. مرتجفًا تقدم إلى الباب وهو يصيح:

. ما هذا المزاح السخيف.

كان على استعداد لتمزيق المصور جزاء تلك المزحة التي لا مبرر لها، والتي لا تسمح بها علاقتهما العملية الحديثة. بقوة جذب الباب.. ولكنه لم ينصع لقوة ذراعه.. جذبه مرة أخرى، فبدا له وكأن هناك من يتشبث به من الخارج، مما دفعه

إلى تناسي كل قواعد اللياقة، وهو يصيح عبر الباب المغلق قاصدًا المصور:

. افتح الباب أيها الغبي.

ولكن الباب بقى على صموده أمام الجذبات العنيفة المتتالية.. وحتى أمام الضربات القوية من القدم والكتف، التي بدت قادرة على تهشيمه إلى ألف قطعة نظرًا لحالته البالية. فتحول الخوف إلى فزع، وصوت ما في أعماقه يخبره أن وراء صمود هذا الباب شيئًا خارقًا للطبيعة.. وهذا ما تأكد منه، عندما هرع إلى النافذة طالبًا للنجدة، فلم يجد في المساحة الشاغرة حول الدار سوى الفراغ، وقد اختفى تكوم الأجساد المتلاصقة التي كانت تملأها منذ قليل.

عندها فقط بكى طفل في فراغ الغرفة!.. اللون الأسود والرماد اللذان يكسيان كل شيء حوله.. وبقايا جثث الأطفال، ورائحة العفن.. لم يكن ينقصها سوى تلك المؤثرات لكي يجن جنونه..

مشكلته أنه أمام خيارين لا ثالث لهما.. إما أنه جن، وأن ما يسمعه هذا محض هلاوس صوتية.. أو أن هناك شيئا شيطانيا يحدث في هذه الغرفة.

حطم صوت البكاء المتعالي من لا مكان البقية الباقية من أعصابه.. من جديد صرخ مناديًا المصور.. بعدها صرخ من

الشباك طالبًا النجدة.. ثم كان هذا الصوت الغريب!.. وكأن آلاف من ألسنة اللهب الخفية تلتهم موجودات غير مرئية.. هناك صوت مميز لفرقعة احتراق الخشب.. وبكاء الطفل يتحول إلى صراخ جنوني.. والمخرج يصرخ معه ويسقط منهارًا.. صوت قدمين ثقيلتين تركضان إلى داخل الحجرة.. يشعر بوجودها الخفي معه.. تركض هنا وهناك.. تتحرك بتوتر وخوف.. يشعر بفزعها يغطي كل أرجاء الغرفة ويفيض عنها.. يسمعها تصرخ:

. ابني.

الخطوات تمر بجواره.. الخوف المتطاير من جسدها يلفحه.. يتحول كل شيء إلى صورة غير مرئية للجنون.. يصرخ من جديد.. ويغطي صوت صراخها على صوته.. فيهب لفوره، ويقفز من الشباك المفتوح أبدًا.

***

الضابط كان يجب أن يحقق في الجريمة. وظيفته الآن أن يسأل.. يجب أن يسأل، حتى وإن ارتدى قناعًا مهنيًا زائفًا. هو يعلم أن ما حدث خارج عن قوانين الطبيعة. ولكن القانون والأوراق الرسمية لا يعترفان بأشياء كتلك. هناك رجل ألقى بنفسه، أو ألقي به من نافذة مرتفعة، ليسقط ميتًا. وهذا المرتجف الجالس أمامه الآن هو من كان بصحبة القتيل لحظة سقوطه.

. أنت تقول إذن أنه ألقى بنفسه؟

المصور كان لم يزل يرتجف.. ذاكرته مشوشة.. لا يذكر الكثير من الأحداث، إلا كلقطات قصيرة عابرة..

. هي.. هي من قتلته.

. من هي.

تذكر المزيد مما حدث، قبل أن يخرجوه من الدار وهو يرتجف ويبكي كالطفل، وقد بلل نفسه..

. صفية.. يقولون إنها كالملائكة.. يقولون إنها كانت أجمل نساء القرية.. الأغبياء.. لم يروا عينيها.. ولا وجه الموت المحفور على وجهها.

الضابط لحظتها خرج عن مهنيته.. أسقط القناع وهو يسأل..

. أرأيتها؟!

هز المصور رأسه..

. وحدثتني كذلك. صوتها لم يزل يزحف في عقلي كرسالة عليَّ تمريرها.. تقول إن الأغبياء دنسوا بيتها.. وإنها ما أرادت سوى أن تترك لحالها.. الآن هي محررة من العهد.. وستخرج بنفسها لتبحث عن رضيعها.

لم يقدر الضابط على النطق لفترة. تأرجح بين عقلية عملية، وعقلية مشبعة بأساطير القرويين الذين عاشرهم طويلا.. في النهاية، حاول أن يجبر عقله على الميل قسرًا نحو التفكير العملي الصارم..

. مجرد تخاريف.

تجاهل أن يدون في الأوراق الرسمية أي من هذه الأقوال، وهو الأمر الذي سيتذكره لاحقًا.. سيتذكره وهو يحقق فيما حدث لأول رضيع يولد في القرية بعد ما حدث. سيتذكر الكلمات والتحذير.. سيتذكره بكثير من الندم.

رَسَائِل

تقلبتُ في الفراش مرة أخرى.. تلقفتني حالة صحو جزئي.. شعرت بالعرق البارد يغرق جسدي، ومنخاريٍّ يبحثان عن أية نسمة باردة تلطف أنفاسي، في تلك الليلة الحارة الخانقة.

زفرت معيدًا عقلي إلى حالة الاسترخاء؛ ولكن العقل بقي على وضع الأرق المؤقت، يخبرني بتلقيه مثيرًا شاذًا يبحث عن ترجمة من الوعي.

استعدت كامل وعيي تدريجيًا، وبدأت في ترجمة ذلك المثير الذي اقتحم عليَّ سباتي.

اعتدلت جالسًا في الفراش، عندما التقطت عيناي ذلك الضوء الخافت القادم من الصالة، عبر باب غرفة النوم المفتوح.. ضوء يصدر عن شاشة التليفزيون تحديدًا.

عقارب المنبه تشير إلى ما بعد الثالثة صباحًا.

ثائرًا هببت من فراشي عازمًا على توبيخ وليد بلا رحمة على سهره أمام التليفزيون حتى هذه الساعة، متناسيًا امتحانات الثانوية العامة التي اقتربت كثيرًا.

اقتحمت فراغ الصالة الغارق في الظلمة، بجسد حفزه غضب في طريقه للانفجار.. ولكن الصالة كانت خالية.

تلفت حولي..

التليفزيون مفتوح على قناة تعرض فيلمًا أجنبيًا ما، ولكن لا أحد يشاهده..

هل فر وليد من الصالة عندما شعر بي قادمًا؟

تقدمت من الجهاز لأغلقه وأنا أطلق اللعنات على الولد المستهتر.

ولكن دون أن أفعل، توقفت يدي في الهواء، وتعلقت عيناي بشاشة التليفزيون. استوقفني ذلك المشهد الشاذ لوجه رجل يصرخ بهيستيريا، بينما الدماء تتناثر على الشاشة متفجرة من موضع ما في جسده لا تظهره الكاميرا. انتابني الاشمئزاز، وتعجبت من تلك الأفلام المقززة التي تجتذب المراهقين. رغم ذلك، شعرت بعيني تتعلقان تلقائيًا بذلك المشهد الدموي..

شيء ما جعلني أتراجع عن اعتبار الفيلم أجنبيًا، ربما ملامح الرجل المصرية، بوجهه الأسمر وشعره الأسود المجعد وأنفه العريض وشاربه المتصل بجزء غير حليق من ذقنه، ليحيط الشعر الأسود الكثيف شفتيه، فيما يعرف بالدوجلاس.

أنا لا أذكر أن مصر صارت تنتج هذا النوع من الأفلام الدموية؛ ولكني أعرف أن هذا المشهد هو أكثر المشاهد التي

شاهدتها في حياتي سادية. بعد حالة عارضة من الافتتان، أطاعتني يدي وضغطت على زر إغلاق الجهاز.

أجفلت عائدًا إلى غرفتي، عندما لمحت ذلك الشيء..

رغم أن احتمال التوهم كبير، خاصة في الضوء الخافت، إلا أني لم أستطع أن أمنع قلبي من الارتجاف. ففي الثانية التي استغرقتها استدارتي، بدا وكأني رأيت شبحًا يتوارى سريعًا إلى داخل حجرة وليد.

تعلقت عيناي بالظلام الدامس المطل من داخل الحجرة، حيث اختفى هذا الشبح المزعوم منذ ثانية.

قد يكون وليد نفسه..

ربما كان مستيقظًا بالفعل يشاهد هذا الفيلم، عندما شعر بي قادمًا فانطلق يختبئ في ظلام غرفته..

ولكن قلبي الواجف يقول لي إن هذا الشبح أطول قامة من وليد..

وعقلي يقول إن هذا مجرد خيال، نتيجة ذلك المشهد البشع الذي ملأ عيني منذ ثوان..

عندها قررت أن إلقاء نظرة سريعة لن يضر.

تقدمت نحو حجرة وليد..

أشعلت ضوءها..

وليد فوق فراشه يغط في النوم . أو هكذا يحاول أن يبدو . لا يشعر بالضوء الذي غمر الحجرة، فقط يتململ ويصدر أنات معترضة مواصلاً نومه.

قاومت رغبة قوية في إيقاظه واستجوابه بقسوة، وقررت أن أؤجل تلك المواجهة للصباح.

مسحت الغرفة مرة أخرى بعيني، قبل أن أقرر الاكتفاء بهذا القدر.

هممت بالعودة، عندما انتابني ذلك الخاطر..

لماذا باب الدولاب مواربًا وليس مغلقًا؟

تعلق بصري بالضلفتين المنفرجتين، ومن جديد عاودت الرجفة قلبي.

بخطوات تنقصها الثقة تقدمت من الدولاب..

التقطت شهيقًا عميقًا، وفتحت بابه بسرعة..

لا شيء.

كل شيء يبدو طبيعيًا..

ابتسمت خجلاً.

لحظة أن بلغني الصوت..

الأمر هذه المرة حقيقي لا لبس فيه..

هذا صوت احتكاك شيء ثقيل بالبساط الذي يغطي أرضية الحجرة..

والصوت قادم من خلفي مباشرة.

التفت..

كان ذلك الشيء ينساب خارجًا من تحت فراش وليد..

شيء هلامي لا أبعاد له، وكأنه خيط دخان، ولكن صلب ذو كثافة.

ينهي زحفه على الأرض، ويبدأ بالانتصاب في الهواء أمام العينين الصارختين المحفورتين في وجهي.

ترتفع قامة هذا الشيء في الهواء، فيبدأ في التشكل على هيئة إنسان..

ببطء.. حتى يصير إنسانًا كامل الهيئة، واقفًا أمامي ينظر إلى عيني بتحدٍ..

ليس أي إنسان..

إنه ذلك الرجل الذي كان يصرخ على شاشة التليفزيون منذ قليل..

هذه المرة صرخت أنا..

صرخة لم أصرخ مثلها من قبل.

عندها.. وكما يحدث كل مرة.. استيقظت من نومي.

***

نفس الكابوس يتكرر لليلة الثالثة على التوالي.. ربما ينقله هذا من مرتبة الكوابيس إلى مصاف الرؤى. ولكن أية رؤية مرعبة تلك؟!. بالرغم مما أورثني إياه الكابوس المتكرر من احمرار في العينين، وصمت شبه دائم، وهبوط مزاجي حاد، تبعته بعض المصاعب في العمل، بسبب ما بدا عليّ من عصبية زائدة، إلا أنني لم أحدث عنه أحدًا، لا زوجتي، ولا ابني، ولا أي مخلوق، فأنا لست من النوع الهيستيري الذي يصرخ في وجه كل من يقابله شاكيًا إذا ما أصابه عارض ما. وبدلاً من هذا، قررت أن الأمر هو شأني وحدي، ولا يهم أحدًا سواي.

لا زوجتي وهي تبدي خوفها من مظهري المشتت، ولا رئيسي في المصنع هندي الجنسية وهو ينقل لي بلغة عربية ركيكة استياءه من مستوى أدائي خلال اليومين الماضيين.

ولكن ما أرقني طويلاً، وتمنيت لو أسأل عنه زوجتي.. هو ذلك الرجل الذي أراه في الحلم.. فوجهه يبدو لي مألوفًا بشكل ما.. ربما هو من معارفي؛ فقد اعتدت على عدم قدرة ذاكرتي على الاحتفاظ بالوجوه التي تمر عليها مرورًا سريعًا، في حين كانت زوجتي تتمتع بذاكرة قوية في هذا المجال.

ولكن قبل أن أحسم أمري بشأن الاستعانة بها، جاءني الجواب بالصدفة في ظهيرة يوم الجمعة ذاك، عندما تلقينا اتصالاً هاتفيًا من شخص كنت قد نسيته.. طه ابن خالة زوجتي.

منذ سبع سنوات، انقطع طه عن زيارة مصر، واستقر في مهجره بعد وفاة زوجته الكندية بشكل مفاجئ. الآن يعود، بعد أن اعتقدنا أنه قد نسي كل شيء عن مصر ولن يطأها مرة أخرى، معلنًا قراره بالاستقرار فيها بشكل نهائي. لم يكتفِ في اتصاله المفاجئ بالسؤال عن الأحوال، وإنما أبلغنا برغبته في القدوم لزيارتنا.

بالطبع رحبت به، فعلى الرغم من معرفتي الفاترة به، لظروف إقامته في كندا التي هاجر إليها بعد زواجي من ابنة خالته بأقل من عام، إلا أنني كنت أعرف معزته الخاصة عند زوجتي، التي تعتبره أخًا لها. لذا، فقد اعتدت . في أوقات تواجده في مصر . أن أعامله كصديق، وهو ليس بالأمر الصعب، فالرجل كان طيب المعشر بالفعل. ولكن الآن، لم أستطع أن أقاوم ذلك التوتر منذ مكالمته.. فالآن فقط تذكرت أين رأيت الوجه الذي يزورني في الكابوس.. هو وجه طه، فقط هو لم يكن من قبل ذا لحية على طريقة الدوجلاس، وهذا تحديدًا ما أثار فزعي..

. هل سبق لطه أن أطلق لحيته على شكل دوجلاس؟!

شاردًا وجهت هذا السؤال لزوجتي وهي ترتدي ملابسها استعدادًا لاستقبال ضيفنا، فسددت إلى وجهي نظرات دهشة قبل أن تقول:

. كلا، لم يفعل شيئًا كهذا من قبل.

زاد هذا الرد من توتري.. فأنا كشخص متعلم أدرك أن ما نراه في الأحلام يكون قادمًا من ذكرياتنا، حتى تلك التي لا نعرف عنها شيئًا، فكيف إذن أرى طه في الحلم بتلك اللحية، في حين أنني لم يسبق لي أن رأيته بها في الواقع؟ ظل هذا السؤال يلح على عقلي، وقد قررت أنه لا يفصل بيني وبين الجنون سوى شيء واحد؛ أن أكتشف أن طه قد أطلق تلك اللحية بالفعل..

وهو ما اكتشفته بمجرد أن فتحت له الباب!

***

فتحت باب الشقة في موعدي اليومي المعتاد . حوالي الخامسة مساءً . مكدودًا مفكك الأوصال بعد يوم شاق في مصنع الملابس القائم في المنطقة الحرة، حيث أعمل ككبير مهندسي الماكينات. جررت قدمي عبر الرواق القصير الفاصل بين باب الشقة والصالة الواسعة. هناك كان وليد جالسًا، دافنًا وجهه بين كفيه، جسده يرتعش في نوبة بكاء حاد. يتعالى صوت نشيجه ويصلني واضحًا..

انقضضت على جسده الضئيل المرتجف، جذبته من كتفيه لينظر إليَّ.. وجهه الغارق في الدموع يواجه وجهي، فأسأله:

. ماذا حدث؟

بصوت متقطع يردد:

. ماما.. ماما..

أصرخ في وجهه:

. ما بها؟ تكلم.

صامتًا يشير تجاه الرواق المؤدي إلى حجرة النوم، فأتركه وأنطلق إلى هناك..

حجرة النوم خالية..

أتلفت حولي.. دورة واثنتين.. لا أدري إلى أين أذهب..

عندها يصلني ذلك الصوت، وأدرك أن هناك صنبور ما مفتوح في الحمام والماء يندفع منه بغزارة..

أغادر حجرة النوم إلى حيث باب الحمام المغلق، فأنتبه إلى الأرض المبتلة تحت قدمي، وأرى دفقات الماء المنسابة من أسفل الباب..

أدفع الباب وأندفع إلى داخل الحمام.. إلى حيث البانيو الفائض بالماء في حين الصنبور أعلاه لا يكف عن ضخ المزيد..

ارتمي فوق جسد زوجتي الهامد في البانيو بوجهها المتصلب ونظراتها الموجهة إليّ بلا حياة..

الدماء التي تغرق الأرض وتمتزج بالماء، وذلك القطع في باطن رسغها الأيمن، والشفرة الملقاه أرضًا وقد تلون حدها بلون أحمر.. كلها أمور تنبئني بما حدث هنا..

الجسد بارد متصلب.. القلب لا ينبض.. فتحتا الأنف لا تعبرهما الأنفاس.. لقد ماتت..

أحتضنها وأصرخ..

أصرخ..

وأصرخ..

عندها تلتفت إليَّ، وتدب فيها الحياة مرة أخرى، وتصيح في وجهي:

. محمود.. محمووووووود..

فأعود للصراخ من جديد..

ثم أستيقظ..

***

. محمووووود..

أفتح عيني، لأجد وجه زوجتي القلق يطل عليّ، وصوتها يتعالى مناديًا لإيقاظي.. بصوت نائم أقول:

. كابوس.

فتقول:

. لقد كنت تصرخ في نومك.

أهز رأسي، أقاوم رغبة عارمة في الانهمار عليها بالقبلات.. كنت فرحًا باكتشاف أنني كنت أحلم.. ولكن طبيعتي الكتومة جعلتني أتماسك حتى لا أثير ريبتها فأضطر لأن أقص عليها ما رأيت.

. لقد أخطأت بالنوم بعد هذا الغداء الثقيل مباشرة.

هزت رأسها متفهمة وهي تقول:

. سأعد لك فنجان قهوة.

غادرت الحجرة، وتركتني ألملم أشلائي..

هل الأمر ينطوي على مصادفة؟ تلك الكوابيس التي تزورني. لماذا كل ذلك الموت، وكل الدماء تلك في أحلامي؟ كان احتمال وجود رسالة مستقبلية ما في الكابوس الأول مازال مسيطرًا على عقلي، ولو أضفنا إليه هذا الكابوس، فسنحصل

على شيء مفزع.. هل تكون زوجتي في خطر؟ هل لذلك علاقة بعودة طه؟ هل يكون هو مصدر الخطر عليها؟ ولكن أي خطر يمكن أن يشكله طه على زوجتي؟ بالطبع استبعدت النواحي العاطفية، فأنا لست مراهقًا.. ثم إن زوجتي ليست بهذا القدر من الجمال الذي يغري ابن خالتها بعد كل تلك السنوات، إذا تغاضينا عن كونه قادمًا من بلاد لا تشكل فيها الرغبات أية معضلة، ولو أراد لتزوج من سيدة جميلة كزوجته الأولى.. بالطبع لا أذكر ملامحها، ولكن أذكر أنها كانت ساحقة الجمال.. لقد رأيتها مرة واحدة فقط، عندما أحضرها معه في زيارته الأخيرة منذ سبع سنوات، وهي الزيارة التي انتهت بموتها المفاجئ، ومن ثم عودته السريعة بجثمانها إلى كندا.

ولكن لماذا أفكر في كل هذه الأشياء؟

خرجت من خواطري قبل أن تتشعب أكثر، على صوت زوجتي تخبرني وهي تتناول فنجان قهوتها بأن طه يدعونا الليلة على عشاء في مطعم فاخر.. لا أعرف لماذا تلقى عقلي كلامها وكأنها تقول إن عزرائيل يدعونا الليلة للمبيت في قبورنا! توتر بالغ شعرت به مشوب ببعض التقزز، فقلت:

. أنسيت أن امتحانات وليد بعد أقل من أسبوعين؟!

قالت:

.كلا لم أنس.. ولكن وليد اليوم لديه درسين متتاليين، ولن يعود إلى المنزل قبل الحادية عشر، وأعدك أن نكون هنا قبل هذا الموعد.

لم أعلق على كلامها، فتابعت:

. ثم إن ماما ستكون هناك.. كما أنه قال إنه يريد أن يتحدث معك في أمر هام.

منذ البداية أدركت أنه لا مجال أمامي للرفض، فأنا لا أملك أسبابًا منطقية، ولا أنوي أن أصرخ قائلاً إنه كان يزورني في كوابيسي. لذا لم أشأ أن أغامر بخصام لا مبرر له مع زوجتي، كما أنني كنت أفضل أن أواجه مخاوفي وهي بعد في طور الغرابة حتى لا تتملك مني.

وهكذا، جلسنا وطه وحماتي نتناول عشاءنا في مطعم الأسماك الفاخر، هذا المطل على البحر في الشاطبي. كانت جلسة هادئة مليئة بالحميمية والذكريات، وإن كنت واجهت صعوبة بالغة في النظر إلى وجه طه لمدة تتجاوز الثانيتين، فقد تملك من ذاكرتي مشهده وهو يصرخ ألمًا ببشاعة في الكابوس.

حدثني عن وحدته هنا، وعن أنه ليس لديه (ظهر) في مصر سواي، فبعد وفاة والديه منذ سنوات، لم يبق له سوى خالته وبناتها. بالطبع أخبرته . مجاملاً . بألا يتردد في طلب أي شيء

مني.. فأخبرني بأنه على اتصال بمجموعة من المستثمرين الكنديين الراغبين في مشاركته في مصنع للأحذية الرياضية، يتمنى أن ينشئه في المنطقة الحرة ببرج العرب، وطلب مني مساعدته بناءً على خبرتي بالمكان، ووعدني بالطبع بأن أشرف على المصنع فنيًا بنسبة من الأرباح.. كما طلب مني أن أساعده على إيجاد مشترٍ لشقة والديه بشارع اللاجيتيه، وهي الشقة التي كان يقيم بها عند زيارته لمصر، وهي التي شهدت وفاة زوجته. أخبرني بأنه بات زاهدًا في تلك الشقة، لا يقوى حتى على دخولها.. هو فقط يقيم بها الآن بشكل مؤقت حتى ينتهي من تجهيز شقة جديدة اشتراها في منطقة سموحة.

وعدته بأن أساعده في تحقيق طلباته، واتفقنا على زيارته . أنا وزوجتي . في شقة اللاجيتيه في أقرب وقت، حتى أعاينها لأجد لها المشتري المناسب.

أوصلنا بسيارته إلى المنزل قبل الساعة الحادية عشر، ورفض كل محاولاتنا لإقناعه بالصعود معنا هو وحماتي متعللاً بتأخر الوقت.

في النهاية، احتواني الفراش ونمت مجهدًا، نومًا هادئًا بلا أحلام أو رؤى غامضة. وضعني هذا في حالة مزاجية أكثر استقرارًا في الصباح، فوقفت في الحمام أحلق ذقني باستمتاع، عندها شاهدت في مرآة الحمام تلك الشقراء تقف خلفي وتهمس لي:

. احذر.

***

توقف التاكسي أمام محطة ترام الرَصّافة.. هبطت منه مشتتًا، حتى أنني تذكرت أجرة السائق في آخر لحظة.

عبرت الباب الحديدي الصدئ لتلك البناية الواطئة، حيث تقطن حماتي. كنت أعرف أنها الوحيدة التي تملك إجابة على سؤالي، وبرغم أن تلك الخطوة تضرب عرض الحائط بكل السرية التي فرضتها على نفسي منذ أن بدأت تزورني تلك الكوابيس، إلا أن الأمر هذه المرة لا يمكن السكوت عليه.. لقد خرجت الرؤى من الكوابيس وباتت تزورني في اليقظة.. ولك أن تتخيل مدى سوء حالتي النفسية هذا اليوم؛ حتى أنني ألححت بعنف على مديري للحصول على إذن انصراف مبكر من المصنع، لكي آتي إلى حماتي بحثًا عن إجابة لهذا السؤال:

. هل لديك صورة لزوجة طه الكندية؟

بالطبع انهالت عليّ الأسئلة كالمطر، وهذا أمر متوقع، نظرًا لسبب الزيارة المفاجئة الغريب الذي أتيت إليها أحمله.. وبالطبع لم يكن لدي أي استعداد للكذب، ولا حتى للحديث بصراحة، لذا لم أزد على أن رددت:

. فيما بعد.. فيما بعد.

في النهاية، وضعت أمامي ألبوم صور قديم، به صورة من حفل زفاف طه، كان قد أرسلها إليها بالبريد بعد زواجه مباشرة. وكانت نظرة واحدة إلى وجه تلك الفاتنة الشقراء الملفوفة في اللون الأبيض تكفيني..

لقد كانت هي ذاتها التي زارتني اليوم في حمامي هامسة لي أن أحذر.

واجمًا نهضت دونما أن أنطق بحرف.

ولكن حماتي ارتبكت وهي توقفني محاولة أن تسري عني، وأن تخفف من الأمر وقد استنتجت بفطنة نادرة السبب وراء تصرفي هذا..

. أرجو ألا يكون الأمر متعلقًا بغيرة ما تشعر بها تجاه طه.. ربما يقلقك عزمه على الاستقرار في مصر بعد كل تلك السنوات.. ولكن صدقني، ما فات قد مات.. فلا داعي لنبش الماضي.

بالطبع لم أفهم ما ترمي إليه، ولكنني استشعرت بأن وراء كلامها أمرًا هامًا، فكان لزامًا علي أن أعرف..

. هذا قلق طبيعي كما تعلمين.

قلتها معتقدًا أن هذا الرد المحايد قد يجعلها تسترسل.. فقالت:

. يابني، ما كان بين زوجتك وطه قد انتهى منذ زمن. منذ أن فسخت خطبتهما ولا شيء يربطهما سوى مشاعر الأخوة.

بذلت قصارى جهدي لكي لا يبدو على وجهي أي تأثر بكلامها، وهو مجهود شاق جدًا، فقد كانت المفاجأة قوية.

تحاملت على دهشتي وأنا أودعها شاكرًا.. عدت إلى المنزل وقد تزايدت مشاعر التمزق وتعاظمت، إلى درجة بدأت أشعر بوطأتها تزهق روحي.

دخلت البيت مبكرًا عن موعد عودتي المعتاد، فلم تكن زوجتي هناك.. بالطبع هي لم تخبرني عن خروجها نهار اليوم، لذا كان لزامًا على علامات الاستفهام التي تملأ أعماقي أن تتكاثر بسرعة رهيبة.. وليد في البيت وحده، أخبرني بأن أمه أبلغته بأنها ستذهب إلى السوق لشراء بعض الأغراض ولكنها تأخرت لساعتين. بعد أقل من ثلث الساعة، عادت بحمل ثقيل من أغراض المنزل.. تعجبت لرؤيتي، فلم أدع لها أي مجال للاستفسار، انفردت بها في حجرة النوم وبادرتها قائلاً:

. أنت كنت مخطوبة لطه؟

تأملتني أولاً بذهول واضح، قبل أن تتماسك، وتقول بلهجة عملية:

. من أخبرك؟

بنفس الطريقة العملية المباشرة أجبتها:

. أمك.

. ومتى تحدثت معها؟

. هذا لا يجيب سؤالي.. لماذا لم تخبريني طوال ثمانية عشر عامًا من الزواج؟

جلست على طرف الفراش، وقالت بهدوء:

. لأن الأمر لم يكن يعني لي أي شيء.. أنا وطه كنا مجرد أخوة، الضغوط العائلية هي التي جعلتنا نخوض تجربة الخطبة.. أمه عندما مرضت بالسرطان أصرت على أن تزوجه قبل وفاتها، وكان بديهيًا أن تختار له ابنة أختها التي تعلم أنها مقربة إلى ولدها، وتلح عليه حتى ينفذ طلبها، ولكن بعد وفاتها رأينا أن الخطبة لا يجب أن تستمر، خاصة وأنها كانت أقرب إلى تمثيلية لإرضاء المرأة المحتضرة، فمشاعرنا أنا وطه لم تكن لتتجاوز أبدًا حدود الأخوة، ولو كنا تزوجنا لصارت كارثة.

اغرورقت عيناها، فلم أجد ما أقوله.. ربت على كتفها مهدئًا، قبل أن أقول بلهجة أكثر لطفًا:

. ولماذا لم تخبريني طوال تلك السنوات؟

قالت:

. لأن طه بالنسبة لي أخ حقيقي.. وكنت أتمنى أن تصيرا أصدقاء، وكنت أعلم أنه لا يمكن أن تصادق رجلاً كان خطيبًا لزوجتك.

هززت رأسي متفهمًا، ثم غادرت الحجرة لأدعها تهدأ.

ولكن في رأسي كانت العواصف مستمرة في زئيرها العالي، هناك روابط أكثر من اللازم تتشابك مع بعضها في عقد تستحيل على الفك، وكلها تلتف حول عقلي لتشل قدرته على التفكير.

بعد الغداء سألتها:

. كيف ماتت زوجة طه؟

قالت:

. أزمة قلبية مفاجئة.

بالطبع لم أخبرها بأن الشواهد التي أحللها في عقلي تخبرني بأنه قد يكون قتلها، ولم أخبرها باعتقادي بأن هناك خطرًا ما على حياتها. ربما لم يتعامل طه مع فسخ الخطبة بنفس البساطة والتلقائية، ربما ما زال يحمل في قلبه حقدًا ما، ألم تأتني زوجته الراحلة لتحذرني؟.. هي بالتأكيد تحذرني منه.

كتمت تلك الأفكار بداخلي، ولم أخرجها على لساني.. الغريب أن زوجتي نسيت تمامًا حوار الظهيرة، حتى أنها لم

تحاول أن تعرف كيف أخبرتني أمها بموضوع خطبتها لطه.. لقد كان ذهنها شاردًا طوال اليوم، وكلامها قليل جدًا.. حتى عندما خرجنا ليلاً وذهبنا إلى شقة طه بناءً على دعوته، بقيت مخلصة لصمتها وشرودها..

أما أنا، فقد تأكد لي من تلك الزيارة أن الأمر كله يحمل رسائل تحذيرية من خطر ما يشكله طه هذا على أسرتي.. فعندما أطللت برأسي على غرفة نومه، وشاهدت بقعة الدماء الضخمة تلك تغطي الفراش بالكامل، ولاحظت أنه لم يرها أحد سواي.. أدركت أنها رسالة أخرى، لا تعني سوى شيء واحد فقط.. لقد قتل زوجته بالفعل، قتلها على هذا الفراش.

***

الآن صرت أدرك بكل حواسي أن الكابوس الذي رأيته في البداية كان مجرد صورة لما يجب علي أن أفعله. لقد صرت مهووسًا بفكرة أن عليَّ أن أقتل طه هذا شر قتلة، قبل أن يتحقق ما ينتويه لأسرتي من شر!

هوس وصل لدرجة مفزعة؛ فأنا لا أدري السبب الذي دفعني لحمل هذا السكين الضخم معي وأنا ذاهب لزيارته، ولا السبب الذي دعاني للكذب عليه وإبلاغه بأنني سآتي إليه الليلة بمشتري للشقة. فقط أدرك الآن بأن لذة كبيرة تجتاح أعماقي وأنا أغرز السكين في جسده بلا رحمة، مرة تلو

الأخرى، والدماء تتناثر في كل مكان، حتى على عيني، وهو يصرخ بتلك الطريقة البشعة، تمامًا كما رأيته في الكابوس.. يصرخ ألمًا، وأنا أصرخ طربًا..

وأصرخ..

وأصرخ..

. يا باشمهندس.

توقظني تلك الصيحة المدوية، فأكتشف بعد فترة من الارتباك أنها صادرة من فم إبراهيم سائق ميكروباص المصنع.

ببطء أدرك الموجودات حولي.. أنا جالس بجوار إبراهيم السائق في الميكروباص الخاص بنقل موظفي المصنع الكبار. معالم الطريق خارج النافذة تخبرني بأننا نعبر فوق كوبري محرم بك، في بداية طريق قناة السويس.. مازال الهلع الناتج عن الكابوس يتملكني، مع توتر يشعله صوت إبراهيم العالي المتسائل:

. آسف يا باشمهندس على إيقاظك، ولكنك كنت تصرخ وتئن في غفوتك. الظاهر كان كابوسًا ثقيلاً.

وتتحطم أعصابي على نغمات صوت الحديث الجماعي للهنود المتناثرين على المقاعد خلفي، بلغتهم الشبيهة بفحيح الثعابين..

ولا تبارح ذهني فكرة أن عليَّ أن أقتل طه..

هذه هي ترجمة كل تلك الرسائل التي تأتيني.

ولكن فقط عليَّ أن أواجهه أولاً، عساني أجد عنده ما يريحني ويهدئ روحي..

عند هذا الحد، فوجئت بالسيارة تقطع طريق الحرية، مارة من أمام مدخل شارع اللاجيتيه.. فصحت في إبراهيم:

. أنزلني هنا.

بخطوات سريعة تدفعها الرغبة في الخلاص من هذا الكابوس المزعج ووضع حد نهائي له، قطعت المسافة حتى بلغت البناية التي يقطنها.. ومن فرط تردي حالتي العصبية، لم ألاحظ سيارة الشرطة الرابضة أمام البناية تلك، حتى وصلت إلى شقته فوجدت بابها مفتوحًا، وعشرات الأشخاص ينتهكون كامل حرماتها.. لم أفهم ما يحدث، ولماذا يمنعني ذلك الجندي من الدخول.. عندها اقترب مني ذلك الشاب صارم الملامح قادمًا من داخل الشقة، قائلاً:

. من أنت؟ وماذا تريد؟

قلت له قلقًا:

. أنا قريب طه وكنت قادمًا لزيارته.

فأشار للجندي بأن يسمح لي بالدخول، وطلب مني أن أنتظر في ركن من أركان صالة الشقة، واتجه إلى حيث رجل

وقور يبدو ضابطًا كبير الرتبة، وقف في جانب بعيد يتكلم مع من بدا لي كبواب البناية، والذي كان في حالة مزرية.. تحدث الشاب للضابط الأكبر همسًا، فقال هذا الأخير شيئًا ما للبواب مشيرًا باتجاهي، فنظر البواب إلي متمعنًا، ثم أشرق وجهه وهز رأسه بالإيجاب.

تقلصت أحشائي من هذا المشهد، وزاد هلعي عندما تقدم مني الشاب مرة أخرى قائلاً:

. تفضل معي.

. إلى أين؟

بلهجة بها رائحة السخرية قال:

. ألم تأت لمقابلة طه؟ سأدعك تقابله.

قادني إلى حجرة النوم.. إلى حيث كان طه راقدًا على ظهره فوق الفراش، وصدره يبدو لي ممزقًا بسكين، ودماؤه تغطي كامل الفراش، بنفس الكيفية التي شاهدته عليها في رؤيتي، فأيقنت أن الدماء في الرؤيا لم تكن دماء زوجته كما اعتقدت.

***

لم أدر كم من الوقت مر وأنا محتجز في تلك الحجرة الصغيرة بنقطة شرطة الإبراهيمية..

في البداية، اصطحبني الضابط الكبير إلى النقطة أنا والبواب، ثم أجرى معي تحقيقًا شاملاً، تحدثت فيه عن علاقتي بالقتيل بالتفصيل الممل . عدا الأجزاء المتعلقة بتلك الرؤى بالطبع . بعدها وجه لي شكرًا رقيقا، وأخبرني بأن أنتظر قليلاً. وعلى الرغم من تأكيداته لي بأنني لست متهمًا بعد بشيء، فإنه أمر باحتجازي في تلك الحجرة إلى حين.

بعدها بقليل، حدث شيء غريب لم أفهم مغزاه؛ جاءني الضابط الشاب وسألني إن كانت معي صورة لزوجتي! وبرغم غرابة الطلب، إلا أنني أخرجت له من محفظتي صورة شخصية لها، فأخذها وخرج. بعدها مرت ساعات لا أعرف عددها، لم أر أحدًا، ولم يستدعني أحد، ولا حتى أعادوا لي الصورة..

في النهاية، دخل ذلك المخبر ليخبرني بأن أحمد بك يطلبني.

قادني مرة أخرى إلى حجرة الضابط الكبير.. هذه المرة كان يجلس قبالته رجل لم أره من قبل، وإن بدا عليه أنه يتحاشى النظر إلى وجهي لسبب ما.

أجلسني الضابط على المقعد الآخر أمام مكتبه، مواجهًا لهذا الرجل المرتبك، وبادرني قائلاً:

. آسف يا باشمهندس على احتجازك لكل تلك المدة.

فقلت له:

. هل أنا متهم بشيء؟

ابتسم قائلاً:

.كلا، لست متهمًا بشيء.

. أأستطيع أن أرحل إذن؟

. ليس قبل أن تسمع تلك الحكاية التي حكاها لنا المتر حسين.

قالها مشيرًا إلى الرجل الجالس أمامه، والذي زاد توتره وأطرق وجهه متمتمًا:

. لا داعي لهذا يا فندم.

بحدة صاح الضابط:

. فقط نفذ ما أقوله لك.

ثم عاد ينظر إليَّ وقال:

. المتر حسين هو المحامي الخاص بالقتيل، لقد استدعيناه للتحقيق معه، كواحد من معارفه النادرين. وقد وجدنا عنده حكاية مسلية، بررت لنا دوافع الجريمة؛ أريدك أن تسمعها منه بنفسك.

قالها، ثم استرخى في مقعده مشعلاً سيجارة، وظهر على وجهه نوع من الاستمتاع وهو يشير للمحامي بأن يبدأ. بدا مزيد من التردد على وجه الأخير، ولكنه استجمع نفسه وبدأ يحكي وهو ينظر إلى قدميه:

. أنا محامي الأستاذ طه منذ زمن، قضيت له أكثر من مهمة في فترات وجوده في مصر.. يثق بي ثقة عمياء، حتى أن توكيله لي توكيل شامل للتصرف في ممتلكاته، وعن طريقه أشركته في عدد من الأعمال في مصر، وتاجرت باسمه في الأراضي والعقارات وما إلى ذلك.. وهذا يبرر كون أسراره كلها يحملها معي.

صمت لوهلة مبتلعًا توتره ثم تابع:

. وهذه المرة، عندما عاد وقرر الاستقرار في مصر بشكل نهائي، كان في رأسه مشروع يريد تنفيذه، قضية يريد أن يسعى فيها لاسترداد ما يعتبره حقًا مسلوبًا منه؛ وقد طلب مني بطبيعة الحال أن أتولاها له.. بالرغم من محاولاتي لكي أثنيه عما برأسه، ولكن طول بقائه في الغربة جعل عقله يلفظ القيم الشرقية ويتمسك بالعقلية الغربية العملية، التي لا تقيم قدرًا للعواطف.. فبقي . رغم محاولاتي . على إصراره بالسير في إجراءات القضية..

عندها صمت مرة أخرى، وطال صمته هذه المرة، وبدا وكأنه غير قادر على المتابعة. تدخل الضابط الذي كان يتابع باستمتاع نهم:

. بكلمات بسيطة يا متر.. ماهي القضية تلك؟

بسرعة قال المحامي:

. قضية لإثبات نسب وليد إليه.

عند هذا الحد، لا أستطيع أن أتذكر تحديدًا كيف تابعت باقي الحوار.. لا أذكر شيئًا عن تعليقاتي، أو عما شعرت به.. فجأة تحول كل الوجود المادي إلى حلم، كل شيء حولي ثنائي الأبعاد، وكأنني شخص آخر غيري.. فقط أذكر الكلمات التي قيلت، ولكنني لا أذكر من قالها..

. لقد كان طه يحب ابنة خالته، وهي أيضًا كانت تبادله نفس الحب، ولكن والدها كان يرفض حبهما. لم يكن مقتنعًا بطه، ويعتبره شابًا رقيعًا فاشلاً.. حتى عندما وافق على خطبتهما، كان ذلك بسبب إشفاقه على شقيقة زوجته التي تحتضر. ولكن بمجرد أن توفت، أصر بقسوة على فسخ الخطبة، وهذا ما حدث.

بعدها تزوجتها أنت، ولكن حبهما بقى متقدًا، حتى أن طه لم يحتمل فسعى إلى الهجرة؟ وبمجرد أن أتم كل الإجراءات، كان لقاء الوداع.. هذا اللقاء الذي تطور إلى علاقة عابرة، بعدها مباشرة حملت مدام شادية بوليد. وفي أول زيارة لطه لمصر، بعد أن استقر في كندا، رأى وليد وانتابه الشك في الأمر، وألح عليه هذا الهاجس، وحاول كثيرًا أن يتوثق منه.

ابنة خالته أصرت على أن وليد ابنك، ولكن طه لم يقتنع، حتى بعد أن تزوج من ميشيل، بقى على حاله الذي صار كالوسواس القهري، مما أثر على علاقته بزوجته، التي أذاقها الويل بسوء معاملته لها، وكأنه تزوجها خصيصًا لكي يفرغ فيها عذابه النفسي المكبوت، وكانت النهاية أن ماتت كمدًا بعد واحدة من مصادماتهما المعتادة؛ وكانت تحديدًا بسبب تأكدها من حقيقة مشاعره تجاه ابنة خالته.

بعد وفاتها، عاد إلى كندا. حاول صادقًا أن ينسى وساوسه، ولكنه لم يستطع، فقرر أن الأمر لن ينتهي إلا بالخوض في غماره حتى النهاية. عاد إلى مصر وهو مصر على أن يخرج من ابنة خالته باعتراف يريحه بأبوته لوليد؛ ولكنها أصرت على موقفها، وأكدت له للمرة الألف أن وليد ابنك.. فما كان منه إلا أن قرر أن يدع المحكمة وتحليل الـ DNA يحكمان في الأمر. خطأه أنه حدث ابنة خالته بهذا الأمر مهددًا.. وعلى الرغم من أن تهديده قد أتى بثماره، وأخبرته أخيرًا بأن شكوكه في محلها، وأن وليد ابنه هو بالفعل، إلا أنه أخبرها بأنه لن يتنازل عن ابنه، وسيمضي في قضية إثبات النسب.. وكان هذا هو سبب ما حدث.

أعتقد أن الضابط هو من قال هذا الحوار التالي:

. لقد أفاد البواب أن سيدة قد صعدت إلى شقة القتيل قبيل اكتشاف الجريمة، وهي نفس السيدة التي كانت قد زارته

بالأمس مرتين، مرة صباحًا بمفردها، ومرة مساءً مع رجل.. وأثناء استجوابه في مسرح الجريمة، دخلت أنت، فسألناه إن كان رآك هنا من قبل، فقال إنك الرجل الذي جاء مع تلك السيدة بالأمس.. وعندما حققنا معك هنا، وأدركنا العلاقات بين الشخصيات، طلبنا منك صورة لزوجتك لعرضها على البواب، فأفاد بأنها هي السيدة المشتبه بها.. هكذا تأكد الأمر لدينا.. فذهبنا إلى شقتك لإلقاء القبض عليها.. فوجدنا...

أجل تذكرت.. لقد قاطعت الضابط هنا.. أجل، قاطعته قائلاً:

. وجدتموها منتحرة.. قطعت شراييها في البانيو.

أذكر الآن نظرة الضابط المذهولة إلى وجهي، وصوته المبهوت يقول:

. كيف عرفت؟

وأذكر أنني رددت بلا شعور:

. إحساس.. مجرد إحساس..

يوچينيا

خرجت الحافلة الصغيرة من شارع 4ب الواسع المديد، إلى شارع جانبي ضيق نسبيًا، يفضي إلى مشارف الحي الخامس(ج). عندها فقط شعرت بالقدرة على التنفس تعاودني من جديد. ساعات طويلة ومرهقة تلك التي قضيتها خارج بيتي، مخبئي الآمن، الذي لا أغادره إلا لأقضي عملاً ما يدر عليّ ريعًا أتعيش به أنا وأمي العجوز. ساعات بدت بطول سنوات، وأنا أتلمس الشرطة وراء كل حجر، لذا عرف الهدوء طريقًا لقلبي، لحظة أدركت أن نجاح مغامرتي يقترب من التحقق، وأن العودة الآمنة إلى الحي الخامس (ج) حيث أسكن، باتت وشيكة.

أغمضت عيني، وأرحت رأسي على قمة ظهر المقعد، الذي تمزق جلده وبرز من تحته الإسفنج الخشن الملوث الذي يحشوه. شبكت أصابعي بقوة حول زجاجة الدواء في يدي، مواصلاً بحثي عن بعض الاسترخاء، الذي بالتأكيد أستحقه بعد أن جازفت بنفسي بذلك الشكل الفاضح، من أجل أن أحضر ذلك الدواء لأمي المريضة. وكلما اقتربت السيارة من تخوم الحي، كلما شعرت بخدر الراحة يسري في

خلايا أعصابي قويًا لذيذًا، حتى إنني بدأت أدخل في حالة وسن جذابة، لحظة أن شعرت بالحافلة تبطئ سرعتها حتى تتوقف.

فتحت عيني، لتشملني حالة من الارتباك والتوتر تسود الراكبين. رأيت السائق يندفع مغادرًا إلى وجهة ما، فحاولت أن ألقي نظرة من النافذة المجاورة، ولكن زحامًا شديدًا من السيارات ملأ الشارع حجب عني الرؤية. ارتجف قلبي وقد توقعت أن أسوأ كوابيسي قد تحقق في تلك اللحظة. فكرت أن أقفز عبر النافذة إلى الشارع وأركض في أي اتجاه متاح أمامي، ولكن الفرجة المتاحة من النافذة كانت ضيقة جدًا، لا تسع لمرور جسدي.

انكمشت في مقعدي تعصف بي أفكار سوداء، تزكيها أصوات البكاء والعويل المكتوم التي تخرج من أكثر من فم ملتاع حولي. العويل تصاعد، ليصبح صرخات هلع قصيرة لا إرادية تناثرت من أكثر من فم أنثوي، عندما أطل علينا ذلك الشرطي من باب السيارة كشبح الموت.. وبصوت بارد لا حياة فيه أمرنا:

. فليهبط جميع الرجال من الحافلة في صف واحد، ثم من بعدهم النساء.

رد الأمر معناه الموت، فلم يكن أمامنا خيار سوى الطاعة. على الأقل لن تؤدي الطاعة في حالتي إلا إلى بعض المتاعب

التي لا تقارن بالموت. لم أكن قد ارتكبت جرمًا ما، لذا فأنا لا أخشى على حياتي ولا على حريتي، سيقومون فقط باستكمال إجراءات المواطنة الخاصة بي، تحديدًا ذلك الإجراء الذي أتهرب من تأديته منذ عامين، ثم سيطلقون سراحي وينتهي الأم؛. بينما هناك غيري . بالتأكيد . من ركاب الحافلة من هم مطلوبون في قضايا قد تؤدي بهم إلى غرفة الإعدام.. فآخر إحصائية سمعتها في التليفزيون تقول إن ثلاثة أشخاص من كل خمسة من مواطني الفئة (ج) مطلوبون للشرطة في قضايا متنوعة.. وهذا يفسر رعشات الأجساد والبكاء الحار والعويل، وكل ما حط على ركاب الحافلة في تلك اللحظة من فزع.

هكذا شجعت نفسي، ونهضت مستسلمًا أتبع الحشود في صف طويل. هبطنا من الحافلة، حيث كان شرطي آخر ينتظرنا، ليقودنا إلى نقطة ما في جانب الطريق. هناك، كان ذلك الضابط المتحفز ينتظرنا لفحص أوراقنا.

بدأت رحلة الفحص تلتهم الأعداد الوافرة المتراصة في الصف. عندما وصل الدور إليّ، كان الفحص قد مر على ثمانية رجال أمامي، أفلت منهم خمسة، في حين تم القبض على الثلاثة الباقين لتهم مختلفة؛ أحدهم كانت حالته مثل حالتي تمامًا.

مد الضابط يده بحركة حادة يختطف بطاقة هويتي من يدي الممدودة له، تفحصها بعناية، فوجد بالتأكيد الخطأ الواضح بها، فسدد إلى وجهي نظرة نارية..

. هذه البطاقة لم تجدد منذ عامين.. لماذا؟

بالطبع لم أجب.. عاد يلقي نظرة سريعة إلى واجهة البطاقة، حيث حرف (ج) يملأ ثلث مساحتها، مطبوعًا داخل مثلث أحمر اللون، ثم عاد يخترق عيني مصدرًا الأمر الذي كنت أنتظره:

. اكشف عن ساعدك الأيمن.

بإذعان صامت فككت الزر الذي يغلق نهاية كم القميص الطويل على رسغي، وبتردد بدأت أثني الكم كاشفًا عن ساعدي؛ ولكن الضابط لم يستطع الانتظار، فانقض على يدي يجذبها بقسوة، وأماط جزءً من الكم المنسدل على كامل ذراعي، جزءً كافيا لتبين ساعدي الأيمن النظيف تمامًا، والخالي من أي أختام.. عندها التمعت في عينيه نظرة انتصار..

. أين ختم يوجينيا؟

لم أرد مرة أخرى، تاركًا له الاستنتاج.. أومأ برأسه إلى شرطي بجواره، فانقض عليّ مكبلا ذراعي، والضابط يقول بطريقة آلية:

. المواطن يسري محمد عمار.. أنت موقوف لتهربك من تطبيق قانون يوجينيا.

***

لا أدري كم من الوقت مر عليّ هنا.. فقد كان مرور الوقت غير محسوس بلا ساعة أو حتى نافذة؛ فقط مواعيد الطعام هي التي تنبئني بصورة تقريبية عن الوقت، فعندما يدفع لي من الفتحة أسفل الباب بصينية طعام تحتوي على قدر من اللحوم، أدرك أن هذا هو الغداء، إذن فنحن في فترة ما من منتصف النهار.. وعندما تأتي الوجبة التالية، فذلك دليل قاطع على أننا صرنا في الليل.. ومن ثلاث وجبات غداء أدرك أنني هنا منذ ثلاثة أيام، وحيدًا في تلك الغرفة البيضاء. كل شيء هنا أبيض.. الجدران بيضاء، الفراش أبيض، والإضاءة بيضاء لا تنطفئ أبدًا حتى في الليل، والملابس المعقمة التي جعلوني أرتديها أيضًا بيضاء. حبس انفرادي كان، ولكنه ليس سجنًا، فالمتهرب من قانون يوجينيا عندما يسقط يقتادونه إلى ذلك المختبر الحكومي الضخم على حدود القاهرة، والذي تطلق الحكومة عليه اسم (المعهد القومي لدراسات البيولوجيا الاجتماعية).

اليوم، وقبل أن يحين موعد الغداء الرابع لي في هذا المكان، فتح الباب لأول مرة منذ أن وضعت هنا. أطل عليّ وجه صارم، يرتدي صاحبه ملابس بيضاء من قطعة واحدة. قبض على ذراعي، جذبه دون كلمات، فأذعنت له. قادني عبر طرقات طويلة، ودفعني إلى حجرة خالية . بيضاء اللون كذلك . إلا من طاولة ومقعدين على جانبيها، مصنوعين من البلاستيك، أجلسني على مقعد وخرج.

بعد ثانية، دخل ذلك الشاب في حلة سوداء تنافي . في شذوذ فج . اللون الأبيض الذي يغرق كل شيء في المكان. كان يتحرك حولي ببطء واثق يثير الأعصاب.. يحمل في يده اليمنى شريحة بلاستيكية رقيقة، يضرب بها على أظافر يده اليسرى محدثًا إيقاعًا موترًا.. بعد قليل، توقف أمامي مباشرة.. نظر إلى الشريحة البلاستيكية في يده وقرأ منها:

. يسري محمد عمار..33 عامًا.. عامل.. مواطن من الفئة (ج)..

ثم ألقى بالشريحة . التي أدركت أنها بطاقتي . على الطاولة أمامه وهو يتابع:

. أليس كذلك؟

هززت رأسي بالإيجاب، فأخرج من جيبه علبة سجائر، أشعل منها سيجارة، في معارضة صارخة لجو التعقيم الذي نتنفسه. لحظتها وصلت إليّ الرسالة كاملة؛ هو يقول لي: أنا أقوى من القانون ذاته، لا تسري عليّ أية نظم أو تعليمات، فلا تحاول العبث معي. نفث دخان السيجارة ثم . أخيرًا . جلس على المقعد المواجه لي.

تطلع إلى عيني بنظرات باردة لا مبالية، وهو يتلو عليّ قرار الاتهام بصوت آلي:

. أنت متهم بالتهرب من تطبيق القانون رقم **104** لعام **2023**، والذي يقضي بإجراء القواعد اليوجينية على المجتمع المصري، بإجراء انتخاب صناعي على عناصر المجتمع، بغرض السماح للعناصر المرغوب فيها فقط بالتكاثر. وينص القانون على إجراء تعقيم إجباري للذكور والإناث من المصنفين كمواطنين من الفئة (ج) مقابل الحصول على تعويضات مادية مناسبة.. وذلك للقضاء على الفقر في البلد، وجعله بلا مستقبل.

صمت الشاب ليسحب أنفاسًا متتالية من سيجارته، ثم قال لي:

. ما ردك على التهمة؟

أجبته بصوت مبحوح من انعدام الكلام طوال الأيام الماضية:

. مذنب.

أنا الآن بين أيديهم، فمن الأفضل ألا أضيع الوقت، فليجروا عملية التعقيم سريعًا ويعيدوني إلى أمي المريضة، لا فرق عندي، أنا أصلاً لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا تهربت من إجراء التعقيم! هل يفرق معي أن يكون عندي أبناء من عدمه، وأنا أصلاً لا أجد مالاً لأتزوج؟.. وحتى إن تزوجت، فمن أين سأنفق على أطفالي؟ وماذا سأترك لهم بعد وفاتي

سوى الفقر وقلة الحيلة؟ صراحة، لقد كنت أشعر بداخلي أن هذا القانون يحمل بعض الراحة لنا نحن الفقراء.. هم لا يريدون لنا أن ننجب، ليكن.. طالما أننا محكوم علينا أن نظل فقراء حتى الممات، بعد أن اعتمدت وزارة السكان قرارًا ينص على اعتبار الفقر وراثيًا، والفقير سيورث فقره لأبنائه. فبات الفقر كالمرض الذي لا شفاء منه أبدًا.

. اسمع يا يسري..

عدت من خواطري على نبرات لهجته الرقيقة وهو يحاول أن يلعب معي دور الصديق الناصح..

. لقد حققت مع العشرات خلال اليومين الماضيين، وصدقًا لم يعد لدي مزاجًا للألاعيب.. لذا سأكون صريحًا معك إلى أقصى درجة..

توقف برهة للتعامل مع سيجارته ثم تابع:

. أنت تعرف أن الحكومة أعلنت منذ عامين عن إتمام إجراءات التعقيم القسري على كل مواطني الفئة (ج)، وقد حصلوا على ذلك الختم الخاص على سواعدهم دلالة على ذلك.. واعتبرت الحكومة أن كل من لم يحصل على هذا الختم، أو لم يجدد بطاقته ليسجل بها خضوعه للتعقيم كاستكمال لشروط المواطنة، متهربًا من القانون، وكانت عقوبته هي أن يجري عملية التعقيم دون الحصول على الحافز

المادي. ولكن الحكومة ترى الآن أنه لابد من وضع عقوبة حقيقية ورادعة للتهرب من قانون يوجينيا؛ وفي هذه اللحظة التي نتحدث فيها، البرلمان يناقش مشروع قانون سيصدر خلال يومين رسميًا، ينص على إعدام من يضبط بتهربه من هذا القانون.

تقلصت أحشائي على وقع كلمة "إعدام"، وشعرت بدوار خفيف يضرب رأسي.. في حين تابع الشاب وهو يطفئ ما بقى من سيجارته بقدمه على الأرض:

. ودعني أخبرك بسر.. لقد صدرت لي أوامر مشددة بألا أقوم بتسجيل الهاربين المقبوض عليهم في تلك الحملة الأخيرة، حتى يصدر القانون الجديد، لكي يسري عليهم.. وأنت واحد من هؤلاء المعنيين.. أي أنك من هذه اللحظة في حكم المحكوم عليه بالإعدام.

ارتجفت تلقائيًا، وحاولت أن أقول شيئًا ما لا أدري كنهه، ولكنه أجبرني على الإنصات له وهو يقول مبتسمًا برقة:

. ولكن أنا لا أحب هذا.. حتى ولو غامرت بتكسير أوامر القيادة. لقد حققت طوال اليومين الماضيين مع العشرات كما قلت لك.. ومنهم من قمت بتسجيله رسميًا بالتاريخ الحقيقي للقبض عليه.. بل ومنهم من أجري تعقيمه بالأمس وعاد إلى

بيته سليمًا معافيًا، يحمل ختمًا صغيرًا على ساعده الأيمن.. وأنا أريد لك أن تكون واحدًا من هؤلاء الناجين. فما رأيك؟

قلت بسرعة وقد فهمت مساومته:

. ما المطلوب مني؟

قال:

. مجرد معلومة صغيرة.. وبعدها تجرى لك العملية، وتكون في بيتك مساء اليوم. لن يضرك شيء.. مجرد عملية غير جراحية بسيطة، فقط ستتعرض لدفقات من الموجات فوق الصوتية، ستغلق الوعاء الناقل للحيوانات المنوية من خصيتيك إلى السائل المنوي، فتفقد القدرة على الإنجاب، دونما المساس بقدرتك الجنسية بأي شكل من الأشكال.

صمت ملاحظًا آثار كلماته على وجهي، فقلت:

. أية معلومة تريد؟

قال مبتسمًا:

. أريد اسم ومخبأ كل متهرب من قانون يوجينيا تعرفه.

قالها واتسعت ابتسامته أكثر.. بينما زاد توتري وفقدت القدرة على التفكير السليم..

. ولكنني لا أعرف أحدا.

بقى محافظًا على ابتسامته..

. إنها حياتك تلك التي تراهن بها.. فاحذر.

نجحت كلماته في إثارة المزيد من الذعر في قلبي..

. صدقني.. صدقني أرجوك.. أنا لا أعرف أحدًا سواي متهربًا.

هنا وجدته شديد العملية بالفعل، لا يحب الكلام الكثير، بينما أنا في موقف أحتاج فيه للكلام الكثير، على الأقل لكي أجد الفرصة لترتيب أفكاري والوصول إلى قرار مناسب.. ولكنه نهض متجهًا إلى الباب بسرعة وهو يقول:

.كما تشاء.. فليكن الإعدام إذن.

هنا لم يكن أمامي إلا أن ألقي بأول كلمة تأتي على بالي، كنت كمن يحاول إدراك الأمل الأخير الذي يبتعد مسرعًا..

. انتظر.

لحظة أن التفت نحوي، وجدت الكلام ينساب من فمي بسهولة وثقة، وكأنني لست قائله..

. أنا أعرف خمسة من المتهربين.. أعرف أسماءهم، وعناوينهم، وأماكن اختبائهم.

عاد يقترب مني وهو يقول:

. رائع.. أخبرني إذن.

لا أعرف كيف وجدت في نفسي تلك القدرة على المراوغة..

. ليس بهذه السرعة.. إذا كانت أسماء أولئك الخمسة تساوي حياتي.. ذات الحياة البائسة التي عرفتها منذ الميلاد، فكم تساوي معلومة أكثر أهمية وخطورة بمراحل؟

أدرك وقتها أنني أتلاعب به بشكل ما، عاد للجلوس أمامي مرة أخرى، وأشعل سيجارة جديدة..

. هات ما عندك.

قلت مبتسمًا وقد استشعرت لذة السيطرة:

. قلت لك: ليس بهذه السرعة.. دعنا نتفق على المقابل أولاً.

هنا أطلق ضحكة مجلجلة اهتز لها جسده..

. أنت لن تساومني يا هذا.. أخبرني بما لديك، وسنقرر بعدها مكافأتك على ضوء أهمية معلوماتك.

أغاظتني طريقته الواثقة المتعالية أكثر مما أرهبتني، فقد بات لدي شعور قوي بأنني لن أخسر شيئًا، حتى الإعدام الذي يساومني به، أستطيع أن أفلت منه ببساطة إذا ما منحته ما لدي، إن كان أصلاً موضوع الإعدام هذا ليس كذبة للضغط

عليّ وإجباري على الكلام.. من هنا قررت أن أحاول الاستفادة قدر الإمكان من مغامرتي تلك، وإلا فلن أخسر شيئًا..

. وأنا لن أتكلم إلا بشروطي.. وإلا فليكن هو الإعدام.

حاول أن ينطق، ولكنني عاجلته بلهجة حادة:

. هل تعتقد حقًا أن الموت يخيفني؟.. أنت ساذج إذن.. حكومتك حكمت عليّ بأن أبقى فقيرًا طوال حياتي مهما فعلت، حولت فقري من ظرف يمكن تجاوزه ببعض الاجتهاد، إلى قدر إلهي لا هروب منه، والآن تقرر أن تحرمني من الإنجاب خوفًا من تلويث البلاد بالمزيد من الفقراء.. فهل تعتقد أن الموت ليس أفضل من حياة كتلك التي نحياها؟. ربما بالنسبة لك.. ولكن ليس بالنسبة لمن قضى عمره في أحياء الفقراء.

ومع لهجتي الهجومية غير المتوقعة، لاحظت ملامحه تفقد تدريجيًا تلك الثقة المتغطرسة التي كانت تكسوها، وأدركت مدى الوقع الذي تركته كلماتي في نفسه، فقررت أن أطرق الحديد فورًا..

. لكي تحصل على ما عندي من معلومات . وأؤكد لك أنها معلومات ستذهلكم . يجب أن تلبي لي طلبًا بسيطًا..

هنا تبلور التحول في اتجاه تفكيره نحوي في شكل سؤال جرى على لسانه بهدوء:

. وما هو؟

فقلت وقد تملكتني الثقة:

. يتم نقلنا أنا وأمي من الفئة (ج) إلى الفئة (ب)، وأحصل على كل مقومات تلك الفئة؛ وظيفة محترمة بدخل شهري مجز، فربما تعرف أنني خريج كلية التجارة، على الرغم من عملي كعامل في ورشة كهرباء، ولكن هكذا شاء لي تصنيفي تبعًا للفئة (ج)، الذي حرمني من حق العمل سوى في الأعمال البدنية والفنية.. وذلك طبعًا كان قبل أن يصدر قرار حرمان مواطني الفئة (ج) من التعليم العالي. وأريد أيضًا شقة نظيفة في حي من أحياء التصنيف الثاني.. وبالطبع أريد أن أحتفظ بقدرتي على الإنجاب.

نظر طويلاً إلى وجهي بلا أي تعبير، فقط جذوة من النار تألقت هناك في حدقتيه لثانية، جعلتني أدرك كم الغضب الذي يعتمل في نفسه.. وفي النهاية هب واقفًا وهو يقول:

. القانون سيطبق بعد يومين.. وهذه هي مهلتك للتفكير.. إما المعلومات التي لديك، وإما الإعدام.. فقط اعلم أننا غير قابلين للمساومة يا غبي.

هم بالانصراف، فتابعت جسده المنطلق بصوت حاد:

. بل هي فرصتك أنت لكي تبلغ رؤساءك بما سمعته وتجيبني.

وعندما امتدت يده لتقبض على مقبض الباب، كنت أصيح:

. شيء آخر..

التفت إليّ بوجه متسائل، فقلت:

. يجب أن تعلم أن تهديدك لم يخفني.. فأنا أعلم جيدًا أنك لو شئت قتلي فلن تنتظر قانونًا.. فمنذ متى تقيمون للقوانين هذا الاحترام؟!

***

قضيت في زنزانتي يومين أفكر في السبب الذي دفعني لتلك المغامرة.. لماذا أبديت بهذه البساطة الاستعداد لإفشاء السر الذي يحافظ عليه مواطنو الفئة (ج) كأرواحهم؟.. ربما هي حالة اللامبالاة التي اعتدت أن أقيِّم بها هذا الموضوع.

كان هذا قبل عامين مضيا.. عندما اصطحبني سامي ابن خالتي إلى عيادة طبيب اسمه يوسف الجيزاوي، وصراحة أقول إنني من البداية لم أكن مقتنعًا بأية جدوى لهذا الإجراء، أنا فقط ذهبت لأن الأمر لن يكلفني شيئًا، وحتى أتخلص من إلحاح سامي..

في العيادة، انتظرنا دورنا، وعندما جاء دخلنا حجرة الكشف، حيث ذلك الطبيب قصير القامة بادي الوقار.. كان يعرف سامي كما أكد لي هذا الأخير.. عرَّفه سامي بي، وأخبره عن رغبتي في الانضمام للمشروع، وأكد له مرارًا أنني أهل للثقة.. أطلق الطبيب العنان لابتسامة واسعة واجهني بها وهو يقول:

. نِعم القرار.. فهذا هو السبيل الوحيد لمواجهة ذلك الزحف اليوجيني الكافر الذي سيغرق البلاد.

ولكن ما لا يعرفه الطبيب، هو أنني لا أنخدع بتلك العبارات الرنانة التي اعتدت سماعها طوال حياتي تجري على ألسنة المعارضين للحكومة..

. ما هي اليوجينيا؟

سألته لأفهم، فكوني صاحب شهادة عليا لا يعني أن أعرف هذا المصطلح الغريب، الذي دخل مجتمعنا منذ بضعة أشهر فقط. عندها بدأ الطبيب يلقي محاضرته:

. اليوجينيا كلفظ مشتق من أصل إغريقي يعني (نبيل المحتد).. وكتعريف: (هي علم تحسين الإنسان عن طريق منح السلالات الأكثر صلاحية فرصة للتكاثر على حساب السلالات الأقل صلاحية).. وهو العلم الذي سماه ونادى به فرانسيس جالتون منذ عام **1883**، واتخذت منه دول عدة في

بداية القرن العشرين سياسة لها، تقضي بتخليص البلاد من الذين يمتلكون صفاتٍ وراثية غير مرغوبة، مثل الأمراض الوراثية، وضعف العقل، وحتى الشواذ والمومسات المحترفات والمجرمين.. سلاحهم الأساسي هو التعقيم الإجباري، لمنع هؤلاء غير المرغوب فيهم من التكاثر. العالم كله ظن أن الفكر اليوجيني قد انتهى مع سقوط النازية، ولكن هذا لم يكن صحيحًا، فقد بقي اليوجينيون يعملون، ربما بشكل أنشط، ولكن في الخفاء، لدرجة أنهم وصلوا للأمم المتحدة ببرامج يوجينية الطبع تدعو لتقويض خطر الانفجار السكاني في دول العالم الثالث تحديدًا، ودعوا بتشجيع الإجهاض، بل وحتى التعقيم الاختياري كوسيلة لتنظيم النسل.

حتى كانت بداية القرن الواحد والعشرين، عندما تشرب العالم من جديد بأفكار عنصرية تدعوا لمحاربة أجناس معينة، كما حدث في الغرب تجاه المسلمين.. عادت اليوجينا للسطح بشكل مكشوف مرة أخرى، بل وتطور الأمر بسرعة رهيبة، حتى صدر عام **2019** قرارًا تاريخيًا من الأمم المتحدة يقر بدستورية الإجراءات اليوجينية، وحرية أي بلد في استخدامها، ومن ثم سارعت دول كثيرة في العالم الثالث، تحت ضغط قوى دولية، أو قوى داخلية منتفعة، بإصدار قوانينها اليوجينية، والتي اعتمدت أكثرها على فكرة قديمة، تعود إلى بدايات اليوجينيا، تقول بأن الفقر نتاج لعوامل

بيولوجية وراثية متعلقة بانخفاض في معدل الذكاء والقدرة على العمل والمثابرة وما إلى ذلك.. وبالتالي طالت الفقراء القوانين اليوجينية.

عندما انتهى، كنت مازلت ألوك كم المعلومات الذي ذكره محاولاً هضمها، حتى قررت أن أقفز مباشرة إلى النقطة التي كانت تملأ عقلي منذ أن سمعت بمشروعه السري..

. وبماذا سيستفيد الفقراء من مشروعك هذا؟

ابتسم مرة أخرى، وهو يقول بود زائد:

. يا بني، لا يوجد حق أعز على الإنسان من حقه في الإنجاب.. وهذا الحق لا يجب أن نصمت وهو يسلب منا بهذه الطريقة.. ويكفي ما أمرنا به الرسول الكريم عندما قال: (تناسلوا...). وطريقتنا في المقاومة، هي ذلك المشروع.

استفزتني كلمة (منا) التي قالها، فقلت له:

. أأنت مواطن من الفئة (ج)؟

ابتسم وقد فهم مرادي، وقال بجرعة أكبر من الود، الذي شعرت به يخفي حنقًا بالغًا:

. كلا، فالأطباء من الفئة (ب) دائمًا.. ولكن يابني، ما أوصلنا لهذه الحالة هو أننا لا نتحرك إلا إذا وقع الأذى علينا

فقط.. ألا يمكن أن نثور من أجل بعضنا البعض، ولو لمرة من باب التغيير، ونكف عن سياسة (ما شأني أنا؟...) التي دمرتنا؟

قررت أن أقتنع بكلامه مؤقتًا.. بعدها حدد لنا موعدًا في المقر السري للمشروع بعد يومين.

فتح باب الزنزانة، ودخل ذلك الرجل بملابس التعقيم البيضاء، يحمل في يده مقص طبي صغير ويقول لي:

. نريد خصلة شعر من رأسك.

غريزيًا قفزت مبتعدًا عن متناول يده وأنا أقول:

. لماذا؟

جاءني الجواب من فم الشاب ذي الحلة السوداء، الذي اقتحم الزنزانة في تلك اللحظة:

. لكي ننفذ لك طلبك.. ألا تريد أن تنتقل للفئة (ب)؟

قررت ألا أستسلم لهما قبل أن أفهم الصورة كاملة، فقلت بطريقة حادة:

. وما دخل خصلة شعري بهذا؟

بنفاد صبر قال الشاب:

. لكي تنتقل من فئة دنيا إلى فئة أعلى . وهذا أمر لم يحدث من قبل . يجب أن نفحص حمضك النووي، لنتأكد من

خلوك من أي أمراض وراثية، لأنك ستنتقل من فئة غير مسموح لها بالتكاثر لأخرى مسموح لها بالتكاثر.

وقال الرجل في ملابس التعقيم مؤكدًا:

. هذا إجراء لابد منه.

هنا سلمته رأسي، ليسلب منها عدد الشعيرات الذي يرضيه.. بعدها غادر، في حين بقي الشاب ذو الحلة السوداء معي في الزنزانة، تقدم وجلس بجواري على طرف الفراش وهو يقول:

. إذن.. ها نحن قد وافقنا على طلبك، فهات ما عندك.

قلت له دون أن أنظر إليه:

. على العكس، كلامكم عن فحص الحمض النووي أولاً مقلق.. فماذا لو اكتشفتم وجود أمراض وراثية؟

قال الشاب:

. على الأقل أثبتنا حسن نيتنا، لماذا لا تفعل المثل وتعطينا المعلومة، حتى نتأكد من أنك لا تتلاعب بنا.

أطرقت لفترة مفكرًا.. هنا فقط أدركت كم أن التلاعب بهؤلاء الناس مستحيل، فأنا لا أستطيع أن أحصل منهم على ضمانات، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أتلاعب بهم إلى حد إغضابهم، فهم لم يصبحوا بعد بتلك الرقة التي تمنعهم من

تمزيق أطرافي للحصول على ما لدي.. من هنا، قررت أن أقدم تنازلاً جزئيًا، فقلت:

. الموضوع متعلق بوجود مشروع سري لتوليد مئات . وربما آلاف . الأطفال لمواطني الفئة (ج) بالحقن المجهري.

لم أدرك الأهمية الحقيقية لتلك المعلومة، حتى شاهدت تعبير الذهول الذي ارتسم على وجهه في تلك اللحظة.

***

خرجت من تلك الحجرة الضيقة منهكًا مفكك الأوصال.. ناولت الكوب البلاستيكي المغطى للطبيب يوسف الجيزاوي، فتناوله وعلى وجهه ابتسامة رضا. غاب به في حجرة جانبية ما، ثم عاد إليّ بقطعة حلوى وزجاجة عصير، تناولتهما منه شاكرًا، بعد أن ألقيت جسدي فوق ذلك المقعد الجلدي الوثير.

. مرحبًا بك في مشروعنا السري للتلقيح الصناعي.. وقتما تشاء سيصير سائلك المنوي هذا طفلاً بإذن الله تعالى.

سألته مؤكدًا:

. حتى لو كانت زوجتي . إذا ما قدر لي الزواج أصلاً . تم تعقيمها بدورها؟

قال الطبيب:

. تعقيم النساء يتم عن طريق سد أو قطع قناة فالوب التي تنقل البويضة من المبيض إلى الرحم، ولكن المبيض يبقى قادرًا على إنتاج البويضات، ونستطيع أن نحصل على البويضة منه مباشرة، ثم نلقحها بالحيوان المنوي ونزرعها في الرحم.

هنا شعرت أن وقت السؤال الأهم قد جاء:

. ولكن هذا يتكلف أموالاً طائلة.

بابتسامة فخر لا أدري ما سببها قال:

. بالطبع هذا المشروع يتكلف الكثير.. ناهيك بأننا نجهز حاليًا ما يشبه مستشفى سري للنساء الذين سيحملون بتلك الطريقة.. لأن رؤية امرأة من الفئة (ج) حاملاً، سيفتح أبواب الجحيم.

واصلت استفساري:

. ومن أين لك بتلك النقود؟

أجاب بنفس الابتسامة:

. من رجال أثرياء شرفاء يحبون هذا البلد، ولا يحبون الظلم الواقع عليكم.

لم أشأ أن أسأله عن وجه الاستفادة التي يرجونها من وراء هذا، فهو سيؤكد لي أنهم ما يفعلون ذلك إلا إرضاءً لوجه الله تعالى، في حين أنني . ولي العذر في هذا . قد فقدت الأمل منذ

زمن في وجود أمثال هؤلاء الناس الذين يساعدون الآخرين، وينفقون كل تلك الأموال، دون انتظار مقابل مادي دنيوي.

ولكن على الباب، وأنا أهم بالمغادرة سألته:

. وهل سيتكفل هؤلاء الأثرياء بنفقات تربية المواليد.؟

نظر إليّ مبهوتًا كمن ينظر لمجنون.. ثم قال:

. بالطبع لا.

إذن فعلينا نحن أن نتحمل هَم نجاحهم في تحدي الحكومة.. بالطبع لم أصرح بهذا الخاطر، فقط قلت:

. لا فارق إذن.

***

في اليوم التالي مباشرة، اقتحم زنزانتي فجأة بعد الغداء مجموعة من الرجال الضخام في ملابس التعقيم.. اقتادوني بعنف، وأنا أصرخ وأحاول الخلاص منهم، عبر أروقة المبنى.. حاولت جاهدًا، ولكنهم كانوا أكثر مني عددًا وقوة، حتى أنهم حملوني حملاً وانطلقوا بي حتى تلك الحجرة، التي بدت لي كحجرة عمليات. صرخت كما لم أصرخ من قبل.. وعندما بح صوتي، فكرت أن أطلب مقابلة ذلك الشاب ذي الحلة السوداء، ولكن تذكرت أنني لا أعرف له اسمًا أو صفةً.

ألقوا بي على طاولة العمليات، وقيدوني إليها بشرائط مطاطية قوية.. وأطل عليّ وجه نحيل بعوينات صغيرة، يتلو بلهجة بيروقراطية جافة من ورقة في يده:

. لقد أثبتت الفحوصات أن الحالة رقم 187 لعام 2025 غير قابلة لإجراء عملية التعقيم بالموجات فوق الصوتية، لذلك تقرر -بعد الحصول على موافقة أكثر من ثلثي أعضاء مجلس إدارة المعهد القومي لدراسات البيولوجيا الاجتماعية- أن تجرى له عملية إزالة شاملة لكامل الجهاز التناسلي، وتعويضها ماديًا عن الأضرار الجانبية المتمثلة في فقدان القدرة الجنسية.

عندما انتهى، كنت قد دخلت في مرحلة هيستيرية من الصراخ والسباب والعويل المنطلق بلا نهاية، حتى أطل عليّ وجه آخر قال صاحبه بهدوء:

. بسبب حالتك العصبية تلك، كنت أحب أن أخدرك كليًا، ولكن هذا ليس مسموحًا لي.. لذا فستبقى متيقظًا أثناء العملية، ولكن أعدك ألا تشعر بشيء.

هنا توقفت عن الصراخ، فلا جدوى من ورائه.. ولكن لم أقدر على منع انهمار سيل الدموع، وأنا أشعر بهم يكشفون عن عورتي، ثم أشعر بتلك الوخزة، التي أعقبها بشكل أسرع مما توقعت إحساس بالتنميل في منطقة أسفل البطن.. بعدها أطل عليّ وجه الرجل . الذي أعتقد أنه طبيب التخدير . قائلاً:

. على فكرة، أنا الآن أعتصر خصيتيك بيدي.. هل تشعر بهذا؟

لم أزد عن صرخة عاجزة قفزت من شفتي، مع المزيد من اندفاع الدموع.. مشاعر المهانة عصفت بقلبي، حتى أكثر من مشاعر الخوف أو الفزع..

لحظتها أطل عليّ وجه الشاب ذو الحلة السوداء.. وكطوق نجاة قال لي:

. هل أنت مستعد للكلام الآن؟

مستعد؟!! أنا مستعد لأن أشي بأمي ذاتها الآن..

وبلهجة عجزت أنا شخصيًا عن متابعة معالمها من فرط سرعتها، أخبرته بكل التفاصيل.. اسم الطبيب.. عنوان عيادته.. عنوان المقر السري للمشروع..

فقابلني بابتسامة رضا وقال:

. هذا أول تصرف حكيم منك.. اسمح لي أولاً أن أتأكد من صحة هذه المعلومات، قبل أن نقرر العفو عنك.

وهكذا قضيت اليومين التاليين بالكامل مقيدًا بهذا الشكل في طاولة العمليات. لا أريد أن أتحدث كثيرًا عن تلك التجربة، التي قتلت بداخلي أية بقية لإنسانية فقدتها منذ زمن.. فماذا تتوقع من شخص يدس الطعام في فمه كالطيور المنزلية.. ويقضي حاجته في ملابسه وتبقى قذارته عليه ليومين؟.. هنا

أدركت أنني انتهيت.. حتى لو خرجت من هنا سالمًا، فما عادت بي رغبة للحياة بعد الآن.

بعد اليومين، دخل عليَّ رجلان فكا وثاقي، وساعداني على الجلوس منتصبًا فوق الطاولة، وقد تيبست مفاصلي وصارت عضلات جسدي كالحجر.. تبعهما الشاب ذو الحلة السوداء، الذي صاح مشمئزًا ما إن استقر أمامي:

. ما هذه الرائحة؟

بالطبع لم أرد، فقد كنت شبه ميت.. فقط أنصتّ له وهو يقول:

.كل شيء على ما يرام.. لقد سقط طبيبك هذا، وتم تدمير بنك الحيوانات المنوية الذي أنشأه؛ ومبدئيًا سقط معه العديدون، أحدهم هو ابن خالتك، اسمه سامي عبدالله.. وقريبًا سيسقط كل من له علاقة بهذا الأمر.

توقف قليلاً ليشعل سيجارة، أخذ منها نفسًا، ثم أشعل منها سيجارة أخرى دسها في فمي، وقال وهو ينفث دخان سيجارته في وجهي:

. بالمناسبة.. لقد صدر رسميًا صباح اليوم قانونًا يقضي بإعدام كل من يضبط متهربًا من التعقيم اليوجيني.. ولن تصدق لو قلت لك إن الآلاف يقفون الآن على باب المعهد

مستسلمين لكي يحصلون على إعفاء من العقوبة كما نص القانون الجديد.

أخذ نفسًا آخر ثم أضاف:

. أما أنت، فستكون مكافأتك هي أن تعفى من هذا القانون.. فهنيئًا لك.. ستجري التعقيم الآن، ثم تغادر إلى بيتك.. فلا تنسانا.

مرة أخرى نفث دخان سيجارته في وجهي، ثم استدار مغادرًا.. وعند الباب، التفت إليّ مرة أخرى متذكرًا أمرًا ما..

. على فكرة.. لم نستطع أن ننفذ اتفاقنا.. فقد أثبت تحليل حمضك النووي أن الجينات المسببة للفقر متوافرة عندك بكثرة.. ونحن نبغي قبل كل شيء أن نحافظ على نقاء مجتمعنا الجديد.

ثم ابتسم ساخرًا وهو يتابع:

. شيء آخر.. عندما تعود إلى بيتك.. ستكتشف أن كل جيرانك، وكل ساكني حيك، بل وكل مواطني الفئة (ج)، يعلمون أنك أنت من وشيت بسرهم الصغير.

ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة، وهو يغادر الحجرة.

اَلشَّقَّة

حين شرع ممدوح في حل أزرار القميص الوردي، الذي يحمل شعار المطعم مطرزًا قبيل حدود كتفه الأيسر، فاجأه صاحب المطعم..

. ماذا تفعل؟

نظر ممدوح إلى وجه رئيسه مذهولاً لثوان، وقد وجد في صوته نبرة غاضبة لا مبرر لها..

. لقد انتهت ورديتي..

برغم أن الساعة أمامهما تشير بوضوح لما بعد منتصف الليل.. إلا أن...

. ولكن محمد بيه لم يشرف بعد.

توقع ممدوح ما يرمي إليه رئيسه.. علم أن سهرته المعتادة على المقهى مع الأصدقاء أوشكت أن تفسد.. ولكنه ابتلع غضبه، وفي صمت أعاد غلق ما سبق وحله من أزرار القميص. ربما طاعته الصامتة هي ما جعلت كلمات صاحب المطعم تخرج من فهمه هادئة متعاطفة..

. اسمع، أنا لا أريد منك الكثير.. فقط أوصل تلك الطلبية إلى عنوان قريب، ثم تعال بدل ملابسك وارحل.

***

لم يكن العنوان بعيدًا.. "بعد المطعم بشارعين، البناية الخامسة من اليمين، الطابق الثالث، الشقة البعيدة عن السلم"

صعد درجات السلم الضيقة في البناية المقصودة.. بلغ الطابق الثالث.. كان به ثلاث شقق وليس اثنتين، كما خمن من عبارة (الشقة البعيدة عن السلم) المكتوبة بخط يد صاحب المطعم في الورقة الصغيرة التي يحملها مع كيس المأكولات. هناك شقة تشرف على السلم مباشرة، وأخرى في مواجهتها، وثالثة تتوسطهما. قدَّر أن الشقة المواجهة لتلك المشرفة على السلم، هي بالتأكيد المقصودة بـ (الشقة البعيدة عن السلم).

تقدم منها.. كانت إضاءة رواق هذا الطابق ضعيفة. لم يكن ثمة ضوء سوى المنبعث من المصباح الصغير الموضوع فوق باب الشقة المشرفة على السلم.. مد يده إلى زر الجرس، ضغطه فلم يتناهَ إلى مسامعه سوى الصمت التام عبر الباب المغلق.. أدرك أن الجرس لم يرن. ضغط زره مرة أخرى، فلم يصدر صوتًا. طرق الباب الخشبي بيده (طق طق).. وقف ينتظر.. لا صوت على الإطلاق.. ربما أخطأ في الشقة.. طرق مرة ثانية (طق طق) وانتظر.. لا شيء.. لا صوت حركة.. لا

نداء من الداخل يأمره بالتمهل والصبر.. لا صوت على الإطلاق، برغم انتظاره قرابة الدقيقة. لكي يفعل ما عليه طرق الثالثة (طق طق).. انتظر لثانيتين لا أكثر، ثم قرر أنه بالتأكيد أخطأ في الشقة.. حمد الله على أن الشقة التي طرقها من باب الخطأ كانت . كما يبدو . خالية، فلم تكبده مشاكل مع أحد في هذه الساعة المتأخرة.

التفت إلى باب الشقة الوسطى، هذه أيضًا تعتبر بعيدة عن السلم، ربما كانت هي المقصودة.. ولكن ما إن أولى جانبه الأيسر إلى الشقة الأولى، حتى فتح بابها.. عاد يلتفت إليها من جديد وهو يقول بلهجة حملها بأكبر قدر ممكن من التهذيب:

. السلام عليكم.. هل...

توقف عن إكمال جملته.. بدا لثوان كصورة جامدة، وهو يتطلع إلى ذلك الفراغ المظلم الذي يبدو من خلف الفتحة الموازية لباب الشقة.. لا أحد يطل عليه من فرجة الباب، لا أضواء.. ظلام دامس داخل الشقة يطالعه من تلك الفرجة.. هل فتح الباب من تلقاء نفسه؟ هل كان مفتوحًا منذ البداية؟. ذكره ذلك الخاطر الأخير بالأفلام البوليسية، حيث باب الشقة غير الموصد يوحي بوجود جثة مقتولة بداخلها!

. السلام عليكم..

صاح بها مرة أخرى، على أمل أن يكون هناك شخص ما خلف الباب يحاول . لسبب ما . أن يخفي وجوده عن الناظر..

لم يتلق أي رد.. تقدم خطوة نحو باب الشقة.. مد يده محاولاً دفعه قليلاً لتوسيع تلك الفرجة، عله يرى ما يروي فضوله.. فقط دفعة بسيطة، ولكنها كانت كافية لأن يفتح الباب عن آخره.. تبدى له مدخل الشقة الكامل، لا شيء خلفه سوى الظلام، الظلام الدامس الذي تشعر بثقله على كاهلك.. خانته شجاعته، فتراجع خطوتين للخلف. عندها..

. ماذا تفعل هنا؟

قفز من مكانه بفعل المباغتة.. خلفه كان ذلك الرجل بادي الغضب يقف أمام الباب المفتوح للشقة المواجهة..

. ماذا تفعل هنا؟

كرر سؤاله بصوت هادر، وعينين أشعلهما الغضب..

. أنا فقط.. أوصل الطعام..

لم يكن ممدوح قد تخلص من الارتباك والخوف اللذين اجتاحاه، عندما تقدم الرجل منه وقبض على ذراعه بقوة..

. أي طعام؟ وتوصله لمن؟

بلهجة كاد أن يغلبها البكاء، قال الشاب الصغير:

. لهذه الشقة، كما هو مكتوب في العنوان..

قالها مشيرًا إلى الباب المفتوح خلفه.. وجه الرجل نظراته إلى حيث أشار ممدوح، فتجمد وجهه، وبدا وكأنه ينتبه للمرة الأولى للباب المفتوح أمامه..

. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. ماذا فعلت؟

بسرعة قال ممدوح:

. أنا لم أفعل أي شيء.. أنا فقط طرقت الباب..

ارتخت قبضة الرجل على ذراع ممدوح، وهو يقول:

. طرقته ثلاث مرات، أليس كذلك؟

أجابه ممدوح:

. بلى.

وأمام عيني الشاب المذهولتين، تقدم الرجل ببطء من الباب المفتوح، وهو يتلو آية الكرسي بصوت مرتعش.. ثم مد يدًا مترددة إلى مقبض الباب.. قبض عليه وجذبه بقوة، مغلقًا باب الشقة من جديد، ثم زفر مفرغًا توتره..

. لقد كان يوجد قفل هنا.

قالها الرجل مشيرًا إلى موضع القفل الخالي من الباب..

. أقسم بالله أنني لم أره.

هز الرجل رأسه، وقد بدا أكثر هدوءً..

. لا عليك؛ أعرف أنك لم تره.

ثم التفت إلى ممدوح، وكأنما تذكر شيئًا، وسأله:

. من أعطاك عنوان هذه الشقة؟

قال ممدوح:

. إنه العنوان المدون في طلبية الطعام.

قال الرجل:

. أمتأكد من أنه هذا العنوان؟

مد له ممدوح يده بالورقة الصغيرة، التقطها الرجل وتأملها للحظات في الضوء الخافت، قبل أن يقول:

. لقد أخطأت العنوان أيها الأبله.. أنت تقصد البناية الخامسة إلى اليمين.. وتلك هي البناية السادسة. لقد أخطأت في عد البنايات.

أعاد الرجل الورقة إليه، فقال ممدوح:

. آسف لهذا الخطأ.

قال الرجل بلهجة هادئة:

.كنت ستأسف أكثر لو لم أدركك.

ساد الصمت لفترة.. لم يستطع ممدوح أن يتحرك، وبدا أن الرجل أيضًا لن يغادر الرواق حتى يطمئن إلى أن ممدوح قد رحل.. ولكن في هذه اللحظة، وبعد أن ذهب الخوف، لم يعد سوى الفضول صاحبًا للسطوة الأكبر على عقل ذلك المراهق الذي يقترب من عامه العشرين..

. ولكن.. ما حكاية هذه الشقة؟

***

. أشياء رهيبة حدثت في هذه الشقة قديمًا.. أشياء لا يعرف عنها أحد أي شيء، ولا حتى قاطني البناية.. لم يعرفوا سوى أن هذه الشقة سكنها محاسب عجوز انطوائي الطباع، لم يعرفوا عنه ما يسوء، حتى ذلك اليوم منذ أكثر من عشر سنوات، عندما ألقت مباحث أمن الدولة القبض عليه، على خلفية قضية (عبدة الشيطان) الشهيرة جدًا أيامها.

يقولون إنه الوحيد الذي أدين في هذا الموضوع، بعد أن قررت النيابة الإفراج عن كل الشباب المتهمين.. يقولون إنه مات في السجن.. مات في الحبس الانفرادي، بعد أن أوشك السجناء على القيام بثورة، مطالبين . لسبب مجهول . ألا يشاركهم هذا الشخص المخيف زنازينهم.. يقولون إنه وجد ميتًا، وعلى جدار حبسه كلمة (سأعود).. بعدها اكتشف الجيران لعنة الشقة التي تفتح بابها لمن يطرقه ثلاث مرات..

ولكن من يدخلها، لا يخرج منها أبدًا. مرة واحدة قرر الجيران أن يقتحموها.. اختاروا نهار الجمعة.. دخلوا فلم يجدوا أي أثر للمختفين.. لا جثث.. لا بقايا من أي نوع. أحضروا البنزين وأحرقوا الشقة، أغلقوا بابها بقفل ضخم، ولكن الشقة لم تعدم الحيلة، مازالت تجتذب الضالين كل حين وآخر.. يقولون إن هؤلاء يذهبون كقرابين للشيطان نفسه، لكي يعيد صاحب الشقة من الموت..

...

عندما أنهى ممدوح حكايته بتلك الطريقة التمثيلية المخيفة، قلت له:

. لا أحد يعود من الموت.

ابتسم قائلاً:

. هذا إذا افترضنا أن هذا الكلام حقيقي.

سأله هاني مقطوع الأنفاس من فرط الانبهار:

. وماذا تعتقد أنت؟ أهو حقيقي؟

ابتسم ممدوح ابتسامة حاول أن يزينها بالغواية..

. لماذا لا تكتشفون هذا بأنفسكم؟

تجمدت أصابعي على كوب الشاي، وأنا أقول:

. ماذا تعني؟

أشعل ممدوح سيجارة، محكِمًا مقتضيات الدور الذي أُدرِك جيدًا مدى استمتاعه بلعبه أمامنا.. فقد كان أكبرنا سنًا، وأكثرنا خبرة بالفعل، بحكم عمله الليلي، إلى جانب دراسته في أحد معاهد الحاسب الآلي.. ولكن كثيرًا ما شعرت أنه أكثرنا طفولية برغم ذلك..

. أعني أن بإمكانكم أن تجربوا هذا الأمر بأنفسكم.

ازدرد هاني لعابه، وعيناه تطلقان الخوف نحو وجه ممدوح، الذي تابع بطريقته العابثة:

. الشقة قريبة من هنا.. لن تتأخرا، كل ما عليكما هو أن تطرقا الباب ثلاث مرات.

كنت أفهم محاولاته الصبيانية لاستفزاز شجاعتنا، فقلت له:

. ولماذا تظن أننا قد نرغب في عمل شيء كهذا؟

ضحك ساخرًا، ثم قال:

. لأنها تجربة مثيرة.

قلت له:

. وما أدراك؟

اتسعت ابتسامته أكثر فأكثر وهو يقول:

. لأنني فعلتها.

بانبهار خالص هتف هاني:

. حقًا؟!

كان هاني هو أكثرنا تأثرًا بممدوح، ربما لأنه أصغرنا سنًا وأقلنا خبرة، مما يجعله أكثرنا استعدادًا للتأثر بتلك الهالة الزائفة من الشجاعة والرجولة المصطنعة التي يرسمها ممدوح حول نفسه..

. بالطبع.. فقد عدت إلى البناية مرة أخرى بعد أن أنهيت عملي.. طرقت الباب مرات ثلاث.. فتح كالعادة، فدخلت وأغلقته خلفي.

كاد هاني أن يقفز فوق طاولة المقهى الصغيرة التي تتوسط مجلسنا، وهو يصيح:

. وماذا وجدت؟

رسم ممدوح الغموض على وجهه، تمامًا كما توقعت أنه سيفعل، وقال:

. لن أخبركما.. فمغامرات الرجال لا تتناقل بالأفواه، وإنما تعاش.

قال هاني كطفل لحوح:

. ولكنني أريد أن أعرف.

قال ممدوح:

. عليك إذن أن تدفع ضريبة المعرفة.. تدفعها من شجاعتك، وقوة أعصابك.. إذا أردت أن تعرف، فلتخض التجربة، تمامًا كما فعلت أنا.. لأن الجبناء لا حق لهم في المعرفة.

تدخلت هنا في الحديث قائلاً:

. وفر إذن معرفتك لنفسك، فنحن لا نريدها.

قال هاني بسرعة:

. ولكني أريد أن أعرف.

قال له ممدوح وهو ينظر لي شزرًا:

. فلتفعل إذن ما عليك أن تفعله.

قال هاني:

. سأفعل.. هيا بنا.

صحت به عندها:

. كلا، لن تفعل بالطبع.

نظر لي هاني غاضبًا، وصاح:

. وما شأنك أنت؟ أنت لست أمي لكي تملي عليَّ أفعالي.

***

بالطبع أنا لست أمه، ولا أباه، ويبدو أنني حتى لست شقيقه الأكبر كما كان يقول دومًا..

هاني جاري منذ مولدنا، أصغر مني بثلاث سنوات.. لم أعرف يومًا سببًا لهذا، ولكنني اعتدت اعتبار نفسي مسئولاً عنه بشكل أو بآخر.. ربما لأنه اعتبرني يومًا ما دليله إلى عالم الشباب.. أنا الذي اصطحبته إلى المقهى للمرة الأولى في حياته، أنا الذي عرفته على أصدقائنا الحاليين، ومن بينهم ممدوح.. أو ربما لأنني فقدت شقيقي الأصغر في طفولتي، فنشأت طفلاً وحيدًا، بعد أن أصابت والديَّ حالة خوف من تكرار تجربة الإنجاب. ولكن في النهاية هاني ليس طفلاً، وأنا لست أمه، كما قال لي.

وقفنا نتطلع إلى باب الشقة في ذلك الضوء الخافت المهيب.. كنا نتكلم بالهمس، خشية أن يسمعنا أي من سكان البناية، خاصة مع السكون الذي يلف كل شيء في هذه الساعة المتأخرة..

. هيا افعلها.

كانت هذه من ممدوح بالطبع.. التفت هاني ينظر إليَّ مستطلعًا ردود أفعالي.. بالطبع لن أثنيه عن عزمه بعد ما قاله لي.. لذا اكتفيت بابتسامة صفراء باهتة، وليفهم هو منها ما يشاء.

زفر هاني وبسمل، وبدأ ببطء متردد يوجه كفه المضموم نحو الباب المغلق..

. لا تفعل.

أفلتت مني رغمًا عني، فقلت بسرعة قبل أن ألوم نفسي:

. أعرف أنني لست أمك.. ولكنني صديقك، وحقك عليَّ أن أنصحك.. لا تفعل.. فهذا الأمر لا علاقة له بالرجولة.. هذه حماقة ليس إلا.

بدا هاني مترددًا، فوجه نظراته هذه المرة إلى وجه ممدوح مستطلعًا موقفه، فرسم الأخير على وجهه تعبير استهانته بكلامي.

للحظات جمد هاني في مكانه، قبل أن يقول:

. سأفعل.

عاجله ممدوح قائلاً:

. رائع.. كل ما عليك هو أن تمكث ولو حتى لثانيتين خلف الباب المغلق.

هز هاني رأسه موافقًا.. ثم مد يده وطرق الباب (طق طق).. غطى صوت ضربات قلبي على صوت طرق الباب.. هل أضربه؟ هل آخذه من هنا عنوة؟ (طق طق).. غبي.. أبله وسلم عقاله لحقير.. لماذا أبقي على صداقتي بممدوح برغم هذا؟ (طق طق)...

تعلقت أعيننا بالباب المغلق.. شحن الجو بتوتر خانق.. جسد هاني ارتعش بشكل ملحوظ.. وفجأة، فتح الباب.

تراجعنا جميعًا خطوة للخلف.. نظرة جانبية وجهتها إلى وجه ممدوح، فوجدت الثقة والشجاعة قد اختفتا، وامتلأت ملامحه بالتوتر والخوف. جال بخاطري لوهلة أنه كاذب، وأنه لم يدخل إلى تلك الشقة كما قال.

. هيا يا هاني.. لا تخف.

تقدم هاني من الباب الموارب، دفعه ببطء. لأول مرة أعرف أن هناك ظلام خام.. ظلام ثقيل الوطأة، ظلام يغطي حتى الأرواح..

. لا تفعل يا هاني.

أفلتت مني مرة أخرى..

. فقط ثانيتين ليس أكثر.

قالها هاني، ثم، وبسرعة لا تتناسب مع حركته البطيئة المرتجفة، دفع جسده إلى ظلام الشقة، وأغلق الباب خلفه.

***

تأكدت من ساعتي مرة أخرى، فوجدتها تصر على أن ما فات لا يتعدى الدقيقة الواحدة، برغم أنها بدت لمداركي كيوم كامل..

. لقد قال ثانيتين.

صحت بها في وجه ممدوح، الذي رفع سبابته إلى فمه، قائلاً:

. اخفض صوتك.. لا نريد أن نوقظ أحدًا.

لم أمتثل، وصحت به بصوت أعلى:

. اللعنة عليك.

ثم انقضضت على باب الشقة المغلق.. وضعت أذني على خشبه منصتًا، وناديت:

. هاني.. هاني، هل تسمعني؟

لا صوت ينبعث من الداخل، بقوة طرقت الباب (طق طق)..

. هاني.

شعرت بممدوح يكبل حركتي ويحاول جذبي للخلف..

. اصمت، واهدأ قليلاً.

دفعته عني بعنف وأنا أصرخ:

. سأقتلك إن لم يخرج حالاً.

بدوره صاح:

. وما دخلي أنا؟ أنا لست معه بالداخل.

عندها فتح باب الشقة المواجهة، ومنها خرج هذا الرجل بمنامته.. بمجرد أن رأيت ملامحه الغاضبة، أدركت أنه نفس ذلك الرجل الذي حكى لنا ممدوح عنه. الغريب أن ممدوح ما إن رآه، حتى نسى كل الادعاءات عن شجاعته ورجولته، وانطلق محاولاً الهرب. الرجل كان أسرع منه، فتعلق بتلابيبه، ودفعه ليصطدم بعنف بباب الشقة الثالثة..

. أنت مرة أخرى؟ ماذا تظن أنك فاعل هنا؟

بخوف ردد ممدوح:

. لا شيء.. لا شيء..

هدر الرجل في وجهه:

. لقد أنقذتك مرة، ورويت لك القصة كاملة.. ولكنك . كالعادة . تظن نفسك بطلاً.

قال ممدوح:

. أقسم لك أنني لم أقرب باب الشقة مرة ثانية.

هنا كنت أنا الصائح:

. ألم تخبرنا أنك عدت وحدك ودخلتها؟

قال ممدوح:

. لقد كذبت.

صاح الرجل:

. بالطبع كذبت.. فلو كنت دخلتها، ما كنت لتقف بين يدي الآن.

هنا لم أشعر بنفسي إلا وأنا أوجه لكمة لوجه ممدوح أسالت الدماء من فمه. حاولت الانقضاض عليه مكملاً، ولكن الرجل تركه وتعلق بي ليبعدني عنه، وأنا لا أكف عن توجيه السباب. لحظتها استغل الحقير الفرصة، وفر هاربًا كلمح البصر.

. اهدأ.. لما كل هذا؟

صحت لفوري:

. هاني بالداخل.

بهت الرجل..

. هاني من؟

. صديقنا.

حدق الرجل في وجهي بنظرات فشلت في ترجمتها.. كان خائفًا.. كان غاضبًا.. كان حزينًا.. لم أفهم..

. ماذا يحدث هنا؟

صدم هذا التساؤل أسماعنا، صادرًا من فم الرجل الذي ظهر على باب الشقة الثالثة..

. أحدهم بالداخل.

هكذا أجابه الرجل الأول..

. من أين أتى؟ وكيف دخلها؟!

أجبته أنا هذه المرة، وأنا أكاد أبكي:

. اسمه هاني.. مراهق في الخامسة عشر.

ثم رويت لهم بكلمات سريعة مضطربة سبب خوضنا تلك التجربة..

. اللعنة عليكم.. أية حماقة، وأي غرور.

هكذا صرخ الرجل الثاني في وجهي، وتقدم مني مندفعًا وكأنه سيضربني. تراجعت للخلف، بينما فصل الرجل الأول بيننا وهو يصيح في جاره:

. اهدأ يا ياسين.. ما حدث قد حدث.

زفر ياسين محاولاً تفويت الفرصة على ثورته، قبل أن يقول:

. لقد فعلنا ما في وسعنا يا محمود.. طوال هذه السنوات ونحن نحاول إبعاد الناس عن هذا الباب، ومع هذا لم نسلم من أمثال هؤلاء المراهقين الأغبياء الذين يظنون الأمر لعب...

لسبب ما توقف ياسين عن إكمال كلامه.. وجه لجاره نظرات متوترة متأملة، في حين منعني الضوء الخافت من تبين ملامح الجار في هذه اللحظة، فلم أفهم ما جذب ياسين فيها ليكف عن حديثه. ولكن ملامح الأسف التي ارتسمت على وجهه، جعلتني أفهم أن حديثه قد أصاب جرحًا ما في نفس جاره..

. آسف يا محمود، لم أقصد.

قال محمود:

. لا عليك، فأنت لم تخطئ.

هنا تدخلت صائحًا:

. يجب أن تفعلا شيئًا.

قال ياسين:

. كل ما بإمكانك فعله هو أن تنسى صديقك، وألا تعود إلى هنا مرة أخرى.

برغم الدموع التي سالت على خدي، إلا أنني لم أستسلم للبكاء، وقلت بمزيد من الإصرار:

. ماذا تعني؟ إنه صديقي.. ويجب أن أنقذه.

قال محمود محاولاً تهدئتي:

. ليس بيدك شيء يا بني.. لو حاولت أن تلحقه فستكون نهايتك أيضًا.

صحت فزعًا:

. أتعني أن هاني قد مات هكذا؟

أجابني:

. العلم عند الله.. فقط أعرف أنه لن يعود من الداخل أبدًا.

ارتجف جسدي بشدة، فاتكأت على الجدار قبل أن أصل إلى حدود الانهيار..

. وماذا سأقول لأهله؟ ماذا سيقولون عني؟

قال ياسين بلهجته الحادة:

. فقط عد إلى بيتك، وانس أنه كان معك.

عند هذا القول حدث الانهيار التام.. تركت جسدي يهوي على الأرض في وضع القرفصاء، وتركت العنان للبكاء المتشنج ليجتاحني.. وفي هذا الوضع سمعت محمود يقول:

. اهدأ.. سنبلغ الشرطة من أجلك.. حتى يكون موقفك سليمًا على الأقل.

رفعت عيني إلى وجهه قائلاً:

. وهل تظن أن الشرطة ستصدق أمرًا كهذا؟

قال ياسين:

. الشرطة عندها علم بكل شيء عن هذه الشقة.. وعندما قمنا من قبل باقتحامها ثم حرقها، تم هذا بحضور رئيس مباحث القسم.

كنت ما زلت أتطلع إليهما، عندما أطرق محمود رأسه للحظات، قبل أن يقول وهو يستدير عائدًا إلى شقته:

. سأطلب الشرطة.

لا أدري ماذا دهاني عندها.. فقط وجدت نفسي أهب واقفًا، وأنقض على باب الشقة لأطرقه المرات الثلاث..

(طق طق).. (طق طق)...

ولكن قبل أن أفعل الثالثة، كان جسدان أكبر مني عمرًا بعشرات الأعوام، يطوقاني من الخلف شالين حركتي..

. ماذا تفعل يا غبي؟! ألم تستوعب بعد؟

دفعا جسدي بعيدًا عن باب الشقة إلى الركن المقابل.. حاولت أن أنتفض، ولكنهما أجادا تثبيتي في مكاني.. في حين صاح محمود في وجهي:

. ماذا تريد أن تفعل؟ ماذا سينفع صديقك إن لحقت به؟

صحت بهما:

. لن أتركه.. سأنقذه، أو أموت معه.

وكزني ياسين بقوة في صدري صارخًا:

. إذا كنت تعتقد نفسك بطلاً، فلتذهب إلى الجحيم.

في حين قال محمود متعقلاً:

. أتظن أننا لم نجرب من قبل؟ من يدخل لا يعود.

قلت:

. ربما لم يفت أوان إنقاذه بعد.

هنا تبدلت نظرات محمود.. شيء من التفكير ارتسم على وجهه، قبل أن يتحول حاله فجأة إلى ذلك الهدوء المتأمل..

. ربما كان محقًا.

نظر ياسين إلى جاره قلقًا..

. محمود، أرجوك لا تفكر في هذا.

بإصرار قال محمود:

. ولكننا لم نجرب هذا الأمر من قبل.. ربما كانت مشكلتنا السابقة في التوقيت.. عندما اختفى إسلام، لم نقتحم الشقة سوى في نهار اليوم التالي.. ربما لو كنا اقتحمناها مبكرًا كنا أدركناه.

هز ياسين رأسه نافيًا وهو يقول بشيء من الحدة:

. هذا ليس صحيحًا.. هذا ما تحاول أن تقنع به نفسك.

صاح به محمود:

. بل هذا ما أستطيع فعله الآن.

صرخ ياسين:

. كف عن لوم نفسك.. لقد فعلت ما بوسعك.. أنت لم تترك إسلام لمصيره.. لقد تبعته إلى الشقة، وهذا ما لم يفعله أي مخلوق قبلك.. فماذا تريد أن تفعل بعد؟!

صمت محمود لفترة.. كان من الصعب تخمين ما يملأ رأسه، قبل أن يقول لي بعينين شاردتين:

. لقد فعلها إسلام . ابني المراهق . منذ حوالي الأعوام الخمس.. فعلها برغم علمه الكامل بكل ما يدور حول هذه الشقة.. فعلها لإثبات رجولته الوليدة.

زاد شروده للحظات وهو يقول:

. لقد كان في نفس عمر صديقك هذا.

لم أدر ما أقول.. هو أصلاً لا ينتظر مني أن أقول أي شيء.. حتى الجار حاد المزاج، صمت تمامًا أمام مشهد الدموع في عيني جاره. ولكن فجأة، انطلق محمود إلى داخل شقته.. لم يلتفت لنداء جاره ياسين..

. إلى أين؟

لحظات، وخرج إلينا حاملاً مطرقة ضخمة بكلتي يديه..

. ماذا ستفعل يا مجنون؟!

ضاعت صيحة ياسين وسط دوي صوت ضربة المطرقة على خشب الباب المغلق في الموضع الذي يضم الرتاج..

. توقف.

واصل ياسين صراخه، دون أن يجرؤ على التقدم ومنع رفيقه، الذي كان الحماس يقوده إلى حدود الجنون، وهو يقول:

. ربما كان الدخول عنوة هو الحل.

ضربة أخرى في نفس قوة سابقتها وانفتح باب الشقة أمامه..

وقفنا نتطلع إلى ذلك الظلام الدامس داخل الشقة يبدو وكأنه سيقفز في وجوهنا ويملأ الرواق..

قال ياسين لجاره:

. أرجوك لا تفعل.

ولكن محمود كان لا يسمع.. فقط يتحرك مدفوعًا بقوى قدرية.. اكتفى للحظات بالوقوف في مواجهة هذا الظلام.. وقفة متحدية، وكأنهما شخصين على وشك البدء في مقارعة مميتة.. جسده بالكامل يتأرجح مع حركة صدره العنيفة صعودًا وهبوطًا.. وفجأة همس:

. سأدخلها رغمًا عنها.

وفي الثانية التالية، كان يخطو إلى داخل الشقة، ليغلف الظلام كامل جسده بعد خطوة واحدة فقط من عتبة الباب.

***

قال ياسين محاولاً تفسير حالة جاره..

. أعتقد أن من يفقد عزيزًا في هذه الشقة يبقى قلبه معلقًا بها، ولابد وأن يأتي يومًا ويدخلها بدوره.

كان ياسين يتحدث بالهمس، مما ضاعف من الفزع الذي يتراقص في أعماقي..

. هل حدث شيء كهذا من قبل؟

سألته فأجاب:

. أول من اختطفتهم الشقة كانت طفلة صغيرة من أطفال البناية.. وقبل أن نفهم كنه هذا الذي حدث لها، كانت أمها هي من تحدثت عن الشقة.. في الوقت الذي بدت لنا الحادثة كطفلة مفقودة، كانت أمها تبدو واثقة من أن ابنتها بداخل تلك الشقة.. حتى كان اختفاؤها بدورها، ليؤجج من شكوكنا حول الشقة الملعونة.

برغم هذا الحوار القصير الذي دار بيننا، إلا أن خوفنا لم يتبدد، وبقينا لا نجرؤ حتى على التقدم من باب الشقة المفتوح.. وبدا لي الآن . وأنا أطالع ذلك الظلام غير الاعتيادي الذي يواجهنا من الداخل بصفاقة . مدى غباء فكرة أن أدخل إلى الشقة بدوري..

. لا يوجد حتى صوت.

قلتها مرتجفًا.. لا شيء يطل عبر الباب المفتوح، فقط الظلام والهدوء الشديد.. لا شيء ينبئ بذلك الرجل متقد الحماسة الذي عبر الباب منذ ما يزيد عن الدقيقة بقليل..

كاذبًا قلت:

. دعنا نتبعه.. ربما لن يصيبنا شيء بسبب عددنا الـ...

أخرسني بإشارة من يده، وهو يتقدم ببطء نجو باب الشقة منصتًا.. أردت أن أطلب منه إيضاحًا، إلا أنني آثرت الصمت التام.

كان يقترب رويدًا رويدًا.. وعلى مسافة قليلة توقف وتكلم:

. هناك حركة ما بالداخل.

مد عنقه للأمام، محاولاً توجيه أذنيه إلى قلب هذا الفراغ الأسود..

. هناك شخص ما، أو شيء ما يتحرك.

فجأة تصلب جسده، وبدأ يتراجع بظهره قائلاً:

. شيء ما قادم.

مع صوته المغموس في التوجس، بدأت أتراجع بدوري، حتى اصطدم ظهري بباب شقة محمود الموارب.. من موضعي ركزت بصري محاولاً اختراق الظلام.. عندها أطل علينا بغتة من قلب الظلام ذلك الوجه..

بفرحة هتف ياسين:

. محمود.

بصوت متقطع مبحوح صاح فينا:

. كشاف.. أريد كشافًا كهربائيًا حالاً.

شلت المفاجأة ياسين، فلم يفعل سوى أن قال:

. ماذا هناك؟

صاح محمود:

. إنهم بالداخل.. كلهم.. إسلام معهم.. يجب أن أخرجهم.

مشدوهًا قال ياسين:

. بالداخل؟ كيف؟ لقد فتشنا من قبل!

صرخ محمود:

. وكيف لي أن أعرف.. أنا فقط أسمع أصواتهم بوضوح.. إنهم في مكان ما بالداخل، ولكن الظلام التام يعوقني.

هز ياسين رأسه قائلاً:

. توقف يا محمود، وحاول أن تستوعب الكلمات التي تخرج من فمك.

مرة أخرى صرخ محمود:

. أعطني الكشاف اللعين، ودع الدهشة لوقت لاحق.

مرتبكًا غاب ياسين داخل شقته، وبقيت وحدي أتأمل وجه محمود الذي يطل من فرجة الباب المفتوح.. يخرج من قلب الظلام، وكأنما لا جسد يحمله.. هذا الوجه لم يكن مليئًا بالتجاعيد هكذا.. وهذا الشعر أعلاه لم يكن أبيض هكذا.. ألجمتني هذه الملاحظات، فلم أفتح فمي بحرف، حتى عاد ياسين بكشاف طوارئ صغير أعطاه لجاره، دون حتى أن يعرض عليه مرافقته..

بلهفة اختطف محمود الكشاف عائدًا إلى الداخل.

. هناك شيء ما على غير ما يرام.

قلتها بصعوبة وبصوت متحشرج، فتساءل:

. ماذا تقصد؟

أجبته:

. هناك شي ما خاطئ به.. ألم تلاحظ كيف بدا وجهه وكأنه شاخ عشر سنوات؟

شرد بصر ياسين في فراغ الشقة المظلم، وغمغم:

. نحن لا نعرف ماذا يواجه بالداخل.

مع جملته تلك، ران علينا صمت القبور.. دقائق طويلة مضت لم نحصها منذ أن غادرنا محمود للمرة الثانية، دون أن نجرؤ حتى على الاقتراب من باب الشقة. إلا عندما قرر ياسين أخيرًا أن القلق قد استبد به، وأن وضعنا قد صار عسيرًا على الاحتمال.. فتقدم من الباب محاولاً اختراق الظلام ببصره.

لفترة طويلة بقى واقفًا على بعد سنتيمترات قليلة من الباب، مسلطًا عينيه إلى الداخل، حتى تشجعت وتقدمت لأقف إلى جواره..

. لا صوت.

قلتها كملحوظة تافهة، لا غرض منها سوى قطع فترة الصمت الطويلة.. في حين تصرف ياسين بشكل أكثر عملية..

. محمود.

وجه نداءه إلى داخل الشقة، فأجابنا صدى بعيد بشكل يستحيل أن يحدث في مكان مغلق كهذا، حتى أنني كدت أسأله عن مساحة تلك الشقة..

. محمووووود.

نداء آخر..

. محموود.

سلسلة من النداءات متفاوتة القوة.. والنتيجة واحدة.. الصمت التام..

هنا فعلت ما كنت أود أن أفعله منذ زمن.. من جيبي أخرجت هاتفي المحمول المزود بكشاف صغير في قمته.. أضأته مسلطًا بقعة الضوء الصغيرة إلى داخل الشقة..

نجح شعاع الضوء في اختراق الظلام، لتسقط بقعة الضوء على جدار قريب جدًا من الباب، لا شيء يميزه سوى ذلك السواد الناتج عن الحريق.. ببطء وتوجس بدأت في تحريك بقعة الضوء.. لا شيء سوى الجدران السوداء، وبقايا أثاث متفحم. دارت بقعة الضوء في الصالة الضيقة، حتى بلغت مدخل تلك الحجرة الجانبية.. زاوية الباب لم تسمح سوى بنفاذ نصف دائرة الضوء إلى داخل الحجرة، ولكنها شكلت ضوءًا كافيًا لتبين ذلك الجسم المنتصب بطول قامة إنسان، ومغطى بالكامل بملاءة بيضاء متنافرة بزهوها مع السواد المحيط بها..

اجفلت من مفاجأة هذا الاكتشاف وأنا أصيح:

. ما هذا؟!

سدد ياسين بصره نحو ما تظهره بقعة الضوء، قبل أن يهتف:

. اللعنة.. كيف نجا هذا الشيء من الحريق بهذا الشكل.

كررت سؤالي:

. وما هذا الشيء؟

قال:

. لا ندري تحديدًا.. يبدو كدمية ما.. أو ربما هو تمثال سحري.. لا ندري.. لقد وجدناه على هذا الوضع عندما اقتحمنا الشقة قديمًا.

حاولت أن أتجاهل مظهره المهيب، وأواصل جولة بقعة الضوء في باقي الشقة.. وعندما انتهيت، كنت قد تأكدت من أنه لا أثر لأي كائن حي في مجال بقعة الضوء..

. وماذا بعد؟

قلتها متحيرًا.. فقال ياسين بعد برهة تفكير:

. يبدو أننا فقدنا محمود أيضًا.

تأملت قسمات وجهه للحظات محاولاً استشفاف ما يدور في عقله.. ولكنه تحرك قبل أن تنجح محاولاتي.

لدقيقة تركني وحيدًا في الرواق، وغاب داخل شقته، قبل أن يعود وفي يده قفلاً فولاذيًا ضخمًا..

. ماذا ستفعل؟

تجاهل تساؤلي، وهو يجذب باب الشقة إلى وضع الغلق، ثم يوصده بالقفل متمتمًا:

. لقد انتهى الأمر عند هذا الحد.

***

وضع عم سعيد كوبين من الشاي أمامي على تلك الطاولة الصغيرة التي تحتل موضعها الأبدي من شرفة منزله الرحبة.. جلس قبالتي وهو يتأمل نظراتي الزائغة إلى الشرفة المقابلة عبر الشارع متوسط الاتساع، ثم لمحته بطرف عيني يهز رأسه آسفًا . على حالي بالتأكيد . ويتمتم بشيء ما بصوت مسموع بالكاد..

عندما وقعت حادثة اختفاء هاني تلك، لم أكن وقتها أعرف شخصا اسمه سعيد عبد الرحيم.. ولكن الآن، وبعد أكثر من عشر سنوات مضت على تلك الليلة المشؤمة، صرت أنا وعم سعيد أصدقاء مقربين.

عجوز وحيد هو.. لم يتزوج لسبب مجهول.. يعيش وحيدًا بعد تقاعده في شقة صغيرة، محاطًا بتجمع صغير من أصدقاء الطفولة، ممن لم يغادروا مثله ذلك الشارع الذي شهد صباهم.

تعرفت على عم سعيد في المقهى الصغير، الذي يقع مباشرة أسفل البناية التي يسكنها.. ذلك المقهى الذي لم أستطع أن أكف عن ارتياده منذ تلك الليلة.. أدمنت جلسته

التي تقع أمام واجهة تلك البناية الملعونة، حيث كنت أستطيع منها أن أراقب لساعات شرفة تلك الشقة في الطابق الثالث.

ولكن عندما تعرفت على عم سعيد، وصرنا أصدقاءً مقربين، اكتشفت أن لديه سرًا لم يطلع عليه أحدًا من قبل.. سرًا يتعلق بسكنه في شقة بالطابق الثالث، حيث تواجه شرفتها الشرفة محترقة الجدران لتلك الشقة المخيفة. في ليلة، اصطحبني إلى شقته ليريني المشهد من شرفته.. كنت أتأمل واجهة الشقة الخارجية، محاولاً ببصري اختراق باب الشرفة المفتوح عن آخره، بعد أن احترق مصراعيه منذ زمن.. ولكن لم يجد بصري سوى المزيد من ذلك الظلام الثقيل يحطم أعصابي.. ليلتها اعترف لي عم سعيد أنه أحيانًا ما يرى أشخاصًا يتحركون بداخل الشقة.. بل وفي مرات نادرة جدًا يرى منهم من يقف في الشرفة.. أشخاص، من بينهم محمود جاره القديم، وابنه إسلام الذي اختفى قبله ببضع أعوام.. حتى هاني؛ عندما وصفته له، أقر أنه رآه ذات ليلة.

وهكذا باتت شرفة عم سعيد مكاني المفضل لقضاء السهرات.. ممنيًا نفسي برؤية هاني في يوم ما. ربما مازال هناك أمل يتلاعب بداخلي.. ربما مازلت أظن أن بإمكاني إنقاذه.. ربما هو فقط الفضول يحرقني..

ولكن الأسوأ، هو ذلك الإيمان الذي يملأ أعماقي بأنني سألبي نداء الشقة في يوم من الأيام. يدوي في أذني حتى يومنا هذا صوت عم ياسين..

"أعتقد أن من يفقد عزيزًا في هذه الشقة يبقى قلبه معلقًا بها، ولابد وأن يأتي يوم ويدخلها بدوره"

على الرغم من أنهم قد سدوا باب الشقة بالطوب، وقاموا بطلاء جدران رواق الطابق بالكامل ليخفوا وجودها.. إلا أنني أعلم أنها هناك.. وواثق من أنها ستفتح لي إذا ما طرقت الطرقات الثلاث.. فالشقة لم . ولن . تعدم الحيلة..

جُنُونٌ مُؤَقَّت

حتى هذه اللحظة، كل الأمور كانت تمضي بشكلها التقليدي. يمكن وصفها بأنها تمضي بشكل جيد، لولا أن ذلك الشكل التقليدي كانت معتادًا وروتينيًا إلى درجة الملل. مقدم البرنامج استخدم ذات العبارات المتعارف عليها بنمطية بائسة لتقديم ضيفه، استخدم تقريبًا ذات الدعابات، التي يستخدمها عادة للبرهان على خفة ظله، الضيف كانت على وجهه تلك الابتسامة الواسعة المعتادة، تلك التي تخبر من يراها كم أن صاحبها فخور بنفسه. الضيف كان محمد عطية نجم الكرة الشهير. ربما هو يملك أسبابًا بالفعل للفخر بنفسه، معظمها مدون في أرصدته البنكية المتضخمة، بعد عامين من اللعب في أحد الأندية الإنجليزية المتوسطة. لذلك، فكل ما يشاع في الإعلام عن انحرافاته الخلقية، وأزماته المتكررة مع ناديه، وحتى انتقاله مؤخرًا إلى ناد إنجليزي صغير يلعب في الدرجة الثانية، لم تنل من ثقته بنفسه، ولا من وسع ابتسامته. حتى مع الهجوم الضاري الذي بدأ يشنه عليه مقدم البرنامج، لم يتراجع النجم عن دفاعه المستميت عن نجاح مسيرته الأوروبية، ساردًا

بحماس عشرات الأسباب لتخلي ناديه عنه، ليس من بينها سوء مستواه، أو سلوكه.

الحوار مضى لفترة طويلة في ذات الاتجاه الهجومي، والذي بدا أنه يطرب مقدم البرنامج، فلم يكن مستغربًا أن ينحني بالأسئلة نحو الأقاويل التي طالت حياة اللاعب الخاصة في بداية انتقاله لإنجلترا، ولم يكن مستغربًا أيضًا أن يبدأ التوتر والضيق يزحفان ببطء واثق على خلجات اللاعب أخيرًا، حتى وإن استمر في الدفاع عن نفسه. مقدم البرنامج لم ييأس، وبدا إنه لن يتوقف قبل أن يقود ضيفه للبكاء أو للانفجار غضبًا؛ على الشاشة أظهر صورة لخبر من جريدة إنجليزية يعود تاريخها لعامين مضيا، يروي تفاصيل إلقاء القبض على اللاعب إثر شجار وقع في أحد المراكز التجارية الشهيرة بلندن، بعد محاولته التحرش بفتاة دون أن يعلم أنها بصحبة صديقها..

زاد توتر اللاعب لحظتها. صوته بات حادًا عاليًا وهو يقول:

. هذا لم يحدث.. لقد برأتني تحقيقات الشرطة، وأثبتت أن الشاب الآخر هو البادئ بالاعتداء. هذا لم يحدث.

مقدم البرنامج، في لحظة تذوقه لطعم الانتصار، قرر أن يهدئ الأجواء قليلاً، فعاد يقتبس من قائمة مزحاته المعتادة. ولكن معاودة اللاعب الصياح أكدت أن الحيلة لم تفلح..

. هذا لم يحدث..

زاد مقدم البرنامج من اتساع ابتسامته، وبدا أنه سينطق، لولا أن بادره اللاعب..

. هذا لم يحدث..

ضحك مقدم البرنامج بصوت عال مداريًا توتره..

. حسنًا يا كابتن، ونحن نصدقك..

ولكن اللاعب عاد يصيح:

. هذا لم يحدث.. لم يحدث هذا... هذا لم يحدث...

لحظتها اختفت الابتسامة، وحل بدلاً منها قلق مبهم..

. هذا لم يحدث... أقول لك هذا لم يحدث..

بلهجة بادية التوتر قال:

. حسنًا يا كابتن، اهدأ أرجوك..

. هذا لم يحدث... هذا لم يحدث...

وجه مقدم البرنامج نظرة حائرة إلى الكاميرا، وكأنما يستغيث بمن وراءها. ولكن ما حدث كان أسرع من قدرة أي شخص على التدخل.. الأمر حدث كلمح البصر؛ بقوة مفاجئة حمل اللاعب الطاولة المعدنية القصيرة الموضوعة أمامه، وانهال بها ضربًا على رأس مقدم البرنامج؛ ضربة تلو الأخرى،

حتى تحول الرأس . الذي كان منذ لحظات يحوي وجهًا دائم الابتسام، وفمًا يطلق المزحة تلو الأخرى بصوت عال النبرات . إلى كتلة مفتتة بلا معالم مفهومة...

عند هذا الحد، توقفت الصورة على شاشة الكمبيوتر، إثر ضغطة من سبابة مدير المستشفى على زر التوقيف المؤقت. سدد بعدها نظرة متفحصة لوجه الطبيب النفسي، الذي تعلقت عيناه بالصورة الثابتة على الشاشة المضيئة. ثم تحدث:

. ما شاهدته الآن هو تسجيل لما شاهدته مصر كلها على الهواء منذ ثلاثة أيام.. ولكن مخرج البرنامج كان متيقظًا، وأنهى البث بعد الضربة الأولى، فحجب عن الناس أغلب هذه البشاعة..

التفت الطبيب إلى رئيسه، نظر طويلاً إلى وجهه شاردًا، وكأنما يجاهد للتخلص من أثر ما شاهده. بعد فترة تحدث:

. جنون مؤقت.

مدير المستشفى ابتسم، ربما لطريقة خروج الكلمة من فم مرؤوسه، والتي بدت كسؤال أكثر منها تقرير..

. الحالة حولت إلينا اليوم من النيابة.

تابع جملته بوضع ملف قليل الأوراق أمام الطبيب الشاب..

. وهذا ملف الحالة. هو -كما فهمت- لا يحمل أية سوابق مرضية. ما فعله أمر شاذ كلية، ورغم هذا لا أريدك أن تتعجل في حكمك؛ لم يزل أمامك خمسة وأربعون يومًا لتسلمني تقريرك. أنت لا تعلم كيف ستمضي الحالة مستقبلا؛ فربما ما شاهدناه ليس أمرًا عارضًا كما افترضت، ربما هو بداية لفصام، أو أية حالة ذهانية لم تفصح عن نفسها للعيان من قبل.

الطبيب اسشعر بعض الحرج وهو يتناول الملف، عاتب نفسه على تسرعه. مدير المستشفى قال لحظتها، وكأنما يتعمد التخفيف عنه:

. على كل حال، هي حالتك.. وهي ليست بالحالة الهينة؛ يكفي أنها قضية رأي عام. وأنا واثق في قدرتك على التعامل معها..

***

اللقاء الأول تم في العنبر. الطبيب كان يعتقد أن أسلوب كهذا يساهم في إذابة الجليد سريعًا بينه وبين الحالة، فكان تقليدًا يحرص عليه، مؤمنًا أن كسب ثقة الحالة يمثل أكثر من نصف أسباب النجاح، لهذا فهو دائمًا ما يحاول جعل اللقاء الأول يأخذ شكلا وديًا.

على طرف الفراش في وسط العنبر تحدثا. لم يتطرق الطبيب إلى الجريمة أو لحالة المتهم بأي شكل من الأشكال.

الجانب الأكبر من الحديث خصصه للتغزل في مهارات اللاعب وتاريخه الرياضي. اللاعب بدا متجاوبًا، وبعد جهد نجح في انتزاع ابتسامة منه، فأدرك أنه على الطريق الصحيح. ما كان الطبيب يأمل من اللقاء الأول أكثر من هذا، لذا كانت دهشته كبيرة لحظة أن سأله اللاعب فجأة:

. أيمكن أن تكون الحالة التي مررت بها تلك ناجمة عن عدوى ما؟!

حاول الطبيب ألا يظهر أي أمارة للتعجب على وجهه. تمسك بفكرة عدم التطرق لتفاصيل الحالة في هذا اللقاء الأول.. لذا قال باقتضاب:

. لا أعرف.. ولكن سأبحث عن تلك المعلومة..

وطوال اليوم، قاوم رغبة حارقة في فهم المغزى من وراء هذا السؤال الغريب. لولا إدراكه لجدوى السير بدقة على خطة الفحص الموضوعة، لعاد إلى العنبر من جديد مستوضحًا. لذا، كان الصبر حتى اليوم التالي هو خياره الحاسم.

في حجرة صغيرة بيضاء معدة للاجتماع بالمرضى، كان لقاؤهما الثاني. الطبيب لم يتطرق لذلك السؤال، حتى انتهى تمامًا من تغطية كل متطلبات الفحص الروتيني؛ تاريخ المريض، الوظائف العقلية، مراقبة العادات الحركية والانفعالات. في النهاية بلغ مرحلة للرضا عما تحقق في تلك الجلسة، فقال:

. لقد سألتني بالأمس عن إمكانية كون حالتك ناتجة عن عدوى ما.. أليس كذلك؟

تحول اليأس الذي ملأ عيني النجم الشهير لحظتها إلى حالة ضبابية من الأمل، وهو يقول بسرعة متلهفة:

. بلى..

ابتسم الطبيب محاولاً استعادة جو الجلسات الودية..

. ولماذا تفكر في أمر كهذا؟

أطرق الشاب قليلاً.. جاهد ترددًا.. حسم أمره فقال:

. هل يمكن أن أثق بك؟

. بمعنى؟

زفر توترًا..

. ما ستسمعه مني قد يكون أمرًا خطيرًا.. والأكيد أنه غير أخلاقي. أنا لا أعرف كيف سيؤثر على موقفي القانوني؛ أنا فقط أريد أن أفهم ما حدث لي؛ وربما لا سبيل لهذا إلا بمصارحتك بما صار.

اعتدل الطبيب في جلسته وقد تأهب لالتقاط شيء هام..

. أنا لست شرطيًا.. في النهاية أنا طبيب، مهمتي الأولى سلامتك.

رغم هذا، لم يتبدد التوتر عن وجه اللاعب. صمت طويلا، وبدا أن الصراع داخله قويًا. في النهاية استسلم للبوح..

. قبل أيام مما فعلته، شاهدت حالة مشابهة.

حاول الطبيب كتم الدهشة..

. متى؟. وأين؟!

.كما قلت، منذ بضعة أيام..أقل من أسبوع.. في إنجلترا..

ثم توقف وقد عاوده التردد لفترة، قبل أن يقول:

. وهناك حالة أخرى سمعت عنها هناك، حدثت في نفس يوم الحالة التي شاهدتها بعيني.. بل، واحتككت بها بشكل غير مباشر أيضًا..

دون أن يغفل الطبيب احتمالات التوهم أو الادعاء، سلط على وجه محدثه عينين حادتين، تعملان عمل أدق أجهزة كشف الكذب، وقال:

. أعتقد أنني أرغب بشدة في سماع تلك الحكاية..

***

طالما اعتبرت سامي خطاب الصديق الوحيد الذي ظفرت به طوال عامين قضيتهما في لندن. سامي، ذلك الشاب الإنجليزي، الذي يشعر بسخط دائم على اسمه العربي، الذي

حصل عليه من والده المهاجر المصري. سامي نموذج لشاب من المستحيل أن تجده في مصر؛ ناجح جدًا في عمله كمبرمج كومبيوتر، في واحدة من أكبر شركات البرمجيات في إنجلترا، رئيسه يقول عنه إنه واحد من العباقرة المنتظرين في ذلك المجال. مخلص في عمله لدرجة تجعلك تظنه راهبا في محراب العمل، ولكن في أوقات فراغه، وفي أيام إجازاته، تجده شابًا منطلقًا يحب الحياة، ويتخذ من ملذاتها منهجًا وديانة، فيعب منها وكأنه سيموت غدًا.

هذا النموذج كان يجب أن يسحرني، أنا القادم من بلد إما أن تعمل فيها لإثني عشرة ساعة يوميًا حتى تكسب الحد الأدنى لمعيشتك، أو تلقي بنفسك في اللهو والمرح والملذات غير عابئ بشيء؛ لا وسط، ولا جمع بين الاثنين بهذا الشكل الراقي الذي وجدته عند سامي، والذي هو ربما من غرس والدته . المهاجرة النرويجية . فيه منذ صغره؛ لا تعارض هنا بين أن تحب عملك وتخلص له، وبين حب الحياة والانغماس في ملذاتها.

وربما كانت هذه نقطة الخلاف التي لم انتبه لها وقتها؛ فأنا لست سامي، ولن أكون مثله، فأنا لا املك تلك البراعة في مزج حياتين. كان عليَّ أن أختار بينهما، وقد اخترت النسخة الليلية من سامي.

تعرفته في أحد الملاهي الليلية التي اعتدت ارتيادها في بداية قدومي للندن، كشاب يخرج من كبت طويل إلى عالم منفتح على كل المتع التي تربى على كونها مخجلة. فجأة، وجدت حولي كل ما كنت أعاني في مصر من مجرد التفكير فيه متاحًا أمامي بلا مقابل أو رقيب، فكان طبيعيًا أن أعب منه حتى الثمالة. العبث تضاعف بعدما عرفت سامي، الذي بات سريعًا قدوتي ودليلي إلى عالم المتعة في ذلك البلد الغريب. لم أنتبه لحقيقة بسيطة رغم وضوحها، وهي أنني هنا لن أصبح محمد عطية النجم الكبير لمجرد أن أسجل هدفًا أو أتألق في مباراتين أو ثلاثة. هنا يتوقعون مني حياة كاملة من الاجتهاد في عملي، لذا أتى التهديد الأول من النادي بالاستغناء عني سريعًا، حين انتشرت رائحة أفعالي ووصلت لصفحات الجرائد، التي وجدت في حياتي الخاصة مادة مثيرة للقراء. لم أتحسب من بلوغ أصداء أفعالي إلى مصر، فكانت الصدمة ثقيلة، عندما بلغني تهديدًا شديد اللهجة من والدتي، بمقاطعتي إن لم أتزوج وأسير بما يرضي الله. في النهاية، قررت أن أتعقل . على الأقل أحاول . وأرضخ.

في الموسم الثاني لي مع الفريق، كنت أكثر التزامًا. على المستوى الشخصي عدت إلى لندن بعروس مصرية من أسرة بسيطة وطيبة، من اختيار أمي، وكان نتاج ذلك أن كبحت علاقتي بسامي تدريجيًا، حتى قاربت حد التوقف النهائي.

ولكن يبدو أني لم أكن راضيًا تمامًا عن تلك التحولات، فالغصة التي تركها في أعماقي إحساسي بالقهر ربما هي السبب في تراجع مستواي، حتى كان قرار النادي بالاستغناء عني.

الأسبوع الماضي، اتجهت إلى لندن لإنهاء إجراءات انتقالي إلى نادٍ آخر. اجتمعت مع مسؤولي النادي الجديد، واتفقنا على تفاصيل التعاقد، وغادرت النادي بعد أن اتفقنا على اللقاء ظهيرة اليوم التالي، لتوقيع الكشف الطبي عليّ في واحدٍ من أكبر مراكز الطب الرياضي في لندن. عدت إلى بيتي الخالي، وقد رفضت زوجتي أن تأتي معي في تلك الزيارة الخاطفة، مفضلة البقاء لإكمال الباقي من الإجازة مع أهلها في مصر.

قبيل الغروب، تملك مني مللٌ لا وصف له، فاتصلت بسامي لأعرض عليه أن نخرج للتسكع قليلاً، خاصة وأنها كانت ليلة السبت. بعد دقائق كانت سيارته الرياضية المكشوفة تتوقف أمام باب بيتي، ويقفز منها ليلاقيني بعناق حار وابتسامة عريضة. دفء اللقاء هذا ربما هو الشيء الوحيد الذي اكتسبه من أصله المصري. دقيقة، وكانت سيارته تقطع الشوارع بنا. لم أسأله عن وجهتنا، فقط اندمجنا في حديث طويل عن الجديد في حياة كل منا، تاركًا له عقالي.

حين انتبهت إلى السيارة وهي تسلك بداية الطريق السريع **M1** الذي يربط لندن بشمال إنجلترا، قلت:

. نحن نغادر لندن!

قال مازحًا:

.كيف لم أنتبه لهذا؟!! يبدو أن الحديث معك شيق جدًا.

. صدقًا أرجوك؛ إلى أين نذهب؟

ببساطة قال:

. إلى مدينة ليستر.

. لماذا؟

. لي صديق قديم هناك من أيام الدراسة، قررت أن أزوره اليوم.. ولما هاتفتني، قلت لنفسي: ولم لا.. عطية سيستمتع بتلك الزيارة.

قلت محتجًا:

. بالطبع لن أستمتع بتلك الزيارة.. لقد أخبرتك للتو بموعدي الهام ظهر غد.

ابتسم..

. اطمئن، سنعود قبل الفجر.

ثم أضاف بعد ثانية من الصمت:

. ليستر ليست بعيدة عن لندن؛ أقل من المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة.

سامي اعتاد دائمًا أن يشبه لي المسافات بين المدن الإنجليزية بالمسافة من الإسكندرية إلى القاهرة، فقد كان والده السكندري يصحبه صغيرًا في إجازات عند أهله في الإسكندرية، وكانت المسافة الوحيدة التي يقطعها بالسيارة في مصر، هي المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة، حيث كانت والدته تفرض عليهم زيارة الأهرامات في كل مرة يزورون فيها مصر. لذا، فكلما سألته عن مدى بعد مدينة ما عن لندن، يقول لي مقربًا الصورة لعقلي: مثل المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة، أو ضعف المسافة مثلاً، أو نصفها.. وما إلى ذلك..

. من صديقك هذا؟

سألته فأجاب:

. صديق قديم من أيام الدراسة اسمه فرانك باتلر، ابن واحدة من عائلات لندن الثرية.. انتقل مؤخرًا إلى ليستر، التي يراها أنسب مكان لممارسة هوايته الجديدة.

صمت وكأنه قال كل شيء.. ولكن هذه كانت طريقته لكسب فضول مستمعيه، فسألته:

. وما هي هوايته؟

ابتسم قائلاً:

. لن أخبرك بالطبع، فهذا سر لا يعرفه في العالم كله أحد غيري.. فقط سأقول لك أن فرانك باتلر ساحر من نوع ما.

. ساحر؟!

. ليس من سحرة السيرك الاستعراضيين.. أنا أقصد ساحرًا حقيقيًا.

قلت دون أن تغادرني الدهشة:

. أهذه هي هوايته؟

أجاب:

. الأمر أكبر من مجرد هواية.. ففرانك حتى وقت قريب كان من الأتباع المخلصين لديانة الويكا..

رغمًا عني ابتسمت، فأضاف سامي:

. أعرف أن الاسم قريب من اسم أكلة مصرية، ولكن الأمر يختلف تمامًا.. الويكا اشتق اسمها من كلمة Wicca وهي تعني "الساحر" بالإنجليزية القديمة.. فهي ديانة يؤمن أتباعها بالسحر، ويمارسونه. ولكن فرانك تم طرده من جماعته، بعد أن ثبت عليه ممارسة نوع من أشد أنواع السحر الأسود قوة وخطورة، والذي لا تقره تلك الديانة، التي تدعو للسحر الأبيض، أو السحر من أجل خير الإنسان.

ولكن فرانك لم يقتنع يومًا بهذا. هو لا يؤمن بوجود سحر ضار؛ يعتقد أن أي نوع من السحر ليس أكثر من نوع خارق

من المعرفة، على الإنسان أن يسعى نحوه. وربما هو الآن في طريقه لصياغة تلك الأفكار على شكل مذهب جديد للويكا.

نظرت إلى وجه سامي الذي كان يلقي بتلك المعلومات على أسماعي وكأنه يتحدث عن مجرد شخص يحب سماع الأغاني الشعبية؛ فالديانات والعقائد هنا في هذا المجتمع شيء يخضع للأذواق الخاصة. حتى سامي، كنت أعرف يقينًا أنه غير مؤمن، على الرغم من أنه لم يصرح أمامي بهذا، ولكنني لم أتوقع أن يتحدث بهذا التقبل والحياد عن شخص يقول إنه يمارس سحرًا من أشد أنواع السحر الأسود قوة وخطورة!

عندما نظر إلى وجهي، قرأ ما كنت أفكر فيه.. فابتسم مشجعًا وقال:

. اطمئن، سنستمتع..

***

ولكننا لم نستمتع.. أو بمعنى أدق: لم نفعل شيئًا أصلاً..

لقد وجدنا صديقه هذا . الذي يسكن ما يشبه قصرًا متواضعًا مفتقرًا للعناية والنظافة . في حالة مزرية، ولم يبد أي استعداد للقائنا. الغريب أنه طلب بعد دقائق من دخولنا بيته أن ينفرد بسامي، ثم غابا لمدة قاربت نصف الساعة في مكان ما بالبيت، وتركاني أصارع مللا مهلكًا. في النهاية عاد سامي بوجه

مغاير تمامًا للوجه المرح المنطلق الذي كان يرتديه عند قدومنا، وطلب مني أن نرحل فورًا. بالطبع لم أكن لأعترض على عرض مغر كهذا، فقط أقلقتني علامات الغضب البادية على وجهه. سألته عما به، فلم يجب. صديقه تعلق بصمت تام حتى غادرنا، وبدا حتى غير راغب في النظر إلى وجهينا.

أوقف سامي السيارة أمام أول حانة قابلتنا، معلنًا حاجته الماسة لشراب قوي.

في الحانة، ومع توالي كؤوس الشراب، أخبرني بحكاية جعلتني أقرر بداخلي أن أقطع علاقتي بهذا المجنون تمامًا..

فأنا لا أدري ما الذي كان يفكر فيه وهو يدعوني بهذا الشكل المفاجئ لزيارة نكرومانسر في بيته!!

****

طوال طريق العودة إلى لندن لم أفتح فمي بحرف..

أطلقت العنان لبصري ليرمح خارج السيارة كيفما شاء، في حين سرح عقلي مستعيدًا كل كلمة، وكل حرف نطقه سامي في الحانة بلسانه المثقل بالثمالة..

"فرانك تعلم منذ فترة ممارسة سحر النكرومانسي، عن طريق طقوس. معينة لا علم لي بها. يمارسها على جثث الموتى لسرقة خبرات ومعارف أصحابها. كانت حجته، التي واجه بها كهنة الويكا، أنه لا يؤذي أحد، هو فقط يسعى لكمال

المعرفة، فهو . كما أكد مرارًا . يعتمد على استجواب جثث الموتى بالفعل.. هو لا يؤذي مخلوقًا حيًا، ولا يرتكب جرمًا، باستثناء نبش القبور.

وكان انتقاله إلى هذا المنزل القديم من أملاك العائلة تحديدًا، لأنه يعتبر مدينة ليستر أفضل مكان في إنجلترا لممارسة هذا السحر. ليستر؛ سكنها الرومان قديمًا بعد أن أسسوها قبل عشرات الأعوام من ميلاد المسيح، ثم السكسونيون، ثم الفايكنج. وحاليًا المدينة تشتهر بتنوعها العرقي الشديد لكثرة ساكنيها من المهاجرين، والذين تقارب نسبتهم النصف من سكان المدينة. هنا سيجد النكرومانسر خليطًا من ثقافات عدة، وحضارات متنوعة، تملأ القبور..."

دارت رأسي مرة أخرى وأنا أستعيد وقع تلك الكلمات على أذني..

" ... منذ ذلك الوقت تغير فرانك كثيرًا.. بات بالفعل أكثر حكمة، وأوسع معرفة، وأعمق خبرة، وإن بات أكثر انعزالا، واعتلت صحته بفعل الجهد الشاق الذي يبذله في عمله هذا. صرت أحب مجالسته، وأزوره باستمرار للاطلاع على آخر ما توصل إليه من أسرار؛ وكان هو يحب أن يحكي لي، فهي فرصة نادرة أن يجد نكرومانسر من ينصت إليه ويسمعه دونما خوف أو اشمئزاز..."

وجهت نظرة جانبية خاطفة إلى وجه سامي الجالس إلى يميني أمام مقود السيارة، فوجدته جامدًا خاليًا من أي تعبير.. كنت أعرف أنه بهذا يحترم صمتي ليس أكثر..

"... ولكنه اليوم بدا مختلفًا.. في البدء خلته غاضبًا من إحضاري لك.. ولكن عندما انفرد بي، أدركت أن هذا ليس هو السبب..."

فكرت أن أكسر حاجز الصمت ثقيل الوطأة، وأفتح موضوعًا ما للحديث؛ لا هدف لي من هذا سوى التأكد من أن سامي لم يصل بعد إلى حد الثمالة التي قد تؤدي بنا إلى الهلاك، فقد كان يشرب في الحانة مثل الإسفنجة..

"... لقد اصطحبني إلى حجرة نومه لكي يريني جثة فتاة عارية ممزقة في الفراش!!"

حاولت صادقًا أن أتكلم، ولكن غضبي الشديد منه حال دون إنجاح تلك المحاولات. لا أعرف لماذا أحمله مسئولية ما صار، في النهاية هو كان سليم النية، ولكنه فقط ذلك الهاجس داخلنا، الذي يجبرنا عند كل أزمة على البحث عمن نلومه..

"... قال لي وهو يبكي إنها جثة حبيبته!! قال إنه لا يعرف ما حدث.. لقد كان يمارس معها غرامًا رقيقًا مفعمًا بالمشاعر كما اعتادا، وفجأة شعر بشيء يدفعه لأن يلتقط سكينًا قريبًا، كانا يستخدماه منذ دقائق لتقطيع التفاح، ليطعنها في كل

مكان، ليترك جسدها كتلة مدماة، فاقدة أي أمارات بشرية. بعدها استعاد وعيه، ليدرك أية كارثة حلت به.

أراد أن يستشيرني في الأمر، فهو لا يعلم كيف يتخلص من الموقف. فعلى الأقل هناك مئة شخص يعلمون أنها في بيته الآن"

عند هذا الحد، عدت للسيارة مرة أخرى قادمًا من تلك الذكريات القريبة البشعة..

السيارة كانت متوقفة في منتصف الطريق الخالي البارد..

بدأت تدريجيًا أفهم ما حدث للتو. فقد حدث الأمر بسرعة مربكة، فاقت سرعة مداركي.. الجسد الذي طار فوق السقف المفتوح.. ثم الفرملة المفاجئة..

نظرت إلى الطريق خلف السيارة، فرأيت الجسد المتكوم في قارعة الطريق، وسيارة الدفع الرباعي المتوقفة على جانبه وغطاء محركها مفتوح..

نظرت إلى وجه سامي، فوجدته كما هو، خال من أي تعبير، حتى لم يلتفت خلفه ليرى ما صنعت يداه..

صحت به:

. أيها المجنون، كيف لم تره؟. لقد كان متوقفًا بجوار سيارته المتعطلة على جانب الطريق.. لا يمكن أن تصدمه إلا إذا تعمدت هذا!!

ثم عدت أرسل بصري تجاه الجسد الممدد على الطريق.. أسعدني أن ألمح حركة من ذراعه..

. إنه حي.

قلتها فرحًا، فحرك سامي ذراع السرعات بالسيارة على وضع الحركة للخلف، وضغط دواسة الوقود بقوة، فانطلقت السيارة إلى الخلف وعجلاتها تصر. هذه المرة صرخت عندما شعرت بالسيارة تمر فوق جسد الرجل، حتى أنني سمعت صوت عظامه وهي تسحق، لحظة أن انطلق سامي بالسيارة مجددًا للأمام عابرًا فوق الجسد للمرة الثانية.. صرخت به:

. مجنووووووووون.. أنت مجنون..

ودون أن أشعر، وجهت لكمة قوية لوجهه، أوقف السيارة على إثرها، وهو ينظر إلى وجهي بنظرة دهشة فاجأتني، ويقول:

. ماذا حدث؟

تأملت دهشته وفزعه، بديا لي صادقين تمامًا..

. يا إلهي!. أحقًا فعلت هذا؟! أرجوك قل لي إنني كنت أحلم..

انهارت بعدها رأسه فوق مقود السيارة، وعلا صوت نحيبه..

****

أطرق نجم كرة القدم الشاب رأسه، بعد أن فرغ من حكايته، متجنبًا مشاهدة آثار كلماته على وجه الطبيب النفسي. الطبيب بقي لفترة محافظا على نفس الصمت الذي تدثر به طوال الحكاية، بلا حتى تعبير على وجهه يفضح ما بأعماقه. اكتفى فقط بتدوين بعض الكلمات كل فترة في النوتة أمامه، تلك الكلمات التي يدرك اللاعب الشاب أنها لن تخرج عن كونها أسماء الشخصيات والأماكن التي ذكرها في قصته؛ فبالتأكيد سيحاول الطبيب التأكد من صحة ما سمعه الآن..

. ولماذا لم تبلغ الشرطة؟

قالها الطبيب، فأجابه اللاعب:

. ولماذا لم يبلغ سامي الشرطة عن صديقه؟ لقد رأينا جميعًا أنه من الأفضل أن ننسى ما حدث في تلك الليلة الغريبة.

ثم أضاف بعد لحظة صمت:

. ولكنني لم أتحسب أن يطاردني هذا الأمر إلى هنا.

ابتسم الطبيب قائلاً:

. يا صديقي، الأمراض النفسية غير معدية.. لو افترضنا أن ما حدث لك كان لحظة من الجنون المؤقت، فهذا أمر نعزوه للضغوط الشديدة المتراكمة. وربما ما حدث كان طبيعيًا فيما

ذكرته، فالأمر ليس عدوى فيروسية مثلاً، ولكن أن تشهد مقتل شخص ما بتلك الطريقة الباردة المتعمدة، ثم تتكتم تلك المشاهدة، فهذا بالتأكيد يشكل ضغطًا هائلاً على أعصابك وعلى عقلك الباطن، يجعلنا نفهم ما قمت به..

صمت لدراسة مدى استيعاب محدثه لتلك الكلمات، ثم واصل:

. ونفس الشيء حدث مع صديقك.. هو كذلك تعرض لضغط الصمت على الجثة الممزقة التي شاهدها، بالإضافة للثمالة، التي هي من العوامل المعجلة بحالات الجنون المؤقت.

تساءل اللاعب:

. وماذا عن فرانك هذا؟

ضحك الطبيب..

. هذا بالذات لا يثير أية دهشة، فهو مختل العقل أصلاً.. ما ظنك بشخص يمارس هذا الهول؟

ثم عاد لجديته وهو يتابع:

.كما ترى، برغم تزامن ثلاث حالات متشابهة، إلا أن لكل حالة ما يمكن أن يبررها.

هز اللاعب رأسه متفهمًا قبل أن يقول:

. وماذا عن الوصمة؟

نظر الطبيب إليه متسائلاً:

. أية وصمة؟

رفع اللاعب كم قميصه الأيسر ليحصره عن شامة بنية اللون ارتسمت أعلى ذراعه..

. هذه الشامة لم تكن موجودة قبل أن أفعل ما فعلت.

نظر الطبيب إلى عينيه مباشرة، محاولاً اقتحام أعماقه وهو يتلقف الكلمات التي تخرج من فمه سريعة يملؤها الحماس..

. سامي أيضًا ظهرت لديه تلك العلامة بعد ما فعله.. وصديقه كذلك.

صمت الشاب، فاستحثه الطبيب على المتابعة:

. وما هي في رأيك؟

قال اللاعب:

. هذا هو الجزء الذي لم أقصه عليك بعد.

****

ألقى سامي ما في الكأس على دفعة واحدة في فمه، ثم سدد نظراته نحوي بعينين حمراوين أجهدهما الرعب والثمالة. قال بصوت كادت أن تتطاير منه الدموع:

. فرانك لديه تفسير ظريف لما فعله.. الأسبوع الماضي . كما حكى لي . انطلق إلى بيته في الولايات المتحدة سعيًا وراء فرصة عظيمة، على حد وصفه. الصدفة، وعلاقاته بممارسين آخرين لنفس السحر، قاداه لتلك الجثة. قال لي إنه دفع مئة ألف دولار للأشخاص الذين نبشوا قبرها. بل وكان مستعدا لدفع مبلغ أكبر لنيل تلك الجثة.

صمت قليلا، ربما توقع أن أسأله عن الجثة، ولكنني لم أكن في مزاج يسمح بألاعيب الإثارة تلك. في النهاية قال:

هل تسمع عن سفاح أمريكي يدعى جيرمي دامر؟

ما كنت في وضع مؤهل للنطق لحظتها، فاكتفيت بهزة رأس نافية..

. دامر سفاح أمريكي كما قلت لك.. هو أبشع سفاح عاش على الأرض.. وحش حقيقي. كان يقتل الشبان والمراهقين الذكور، ثم يغتصب جثثهم، وبعدها يقطعها ويأكلها. كان شيطان، الهروب منه لم يكن بالشيء الهين. واحد فقط فعلها.. دخل إلى بيت دامر وخرج منه سليمًا، ليبلغ عنه الشرطة ويتسبب في سقوطه. حدث هذا منذ أكثر من عشرين عامًا. بعد هذا الزمن، ذلك الناجي صار بدوره قاتلا. قبض عليه وأدين بجريمة قتل بشعة، قبل أن يموت في سجنه منذ فترة قريبة. جثته تحديدًا هي ما عبر فرانك المحيط من أجلها.

صمت لثانيتين ليعب كأسًا جديدًا..

. كان مسحورًا باكتشاف اللحظات الأخيرة لدامر السفاح من خلال عين آخر ضحاياه. كان متشوقًا لاكتشاف الكثير. ولكن ما رآه لم يعجبه؛ هذا هو ما أخبرني به اليوم دونما الكثير من الإيضاح. لم استفسر منه عما رآه. فقط قال إن دامر لم يكن إنسانًا؛ قالها وهو يعني المعنى الحرفي للكلمة. قال إن ذلك الناجي لم يفصح عن كل ما رآه في بيت دامر، ربما خشية اتهامه بالجنون. قال إن دامر ترك جزء منه في روح ذلك الناجي؛ جزءً بسيطًا، ولكنه قادر على تلويثه إلى مماته. وهو الآن لا ينفك يفكر في دامر بعد ما فعله، خاصة مع ظهور تلك العلامة.

صمت من جديد، فنطقت هذه المرة..

. أية علامة؟

. علامة ظهرت على ذراعه.. شامة بنية صغيرة. فرانك يعتقد أنها وصمة الاتصال بالشيطان..

***

حافظ وكيل النيابة على صمته للحظات قبل أن يقول:

. هو إذًا يظن أن هناك شيء ما كان عالقًا في تلك الجثة من أثر ذلك السفاح القديم، وأن هذا الشيء أصاب الشاب

الإنجليزي، ثم بدأ ينتقل كالعدوى، أولاً إلى سامي هذا، ومنه انتقل إليه هو؟!

هز الطبيب النفسي رأسه بالإيجاب:

. هو كذلك..

تساءل وكيل النيابة:

. وما رأيك أنت؟

ارتسمت على وجه الطبيب ابتسامة حرج، وهو يقول:

. سيدي، الحالة لم يمض على وجودها هنا بالمستشفى سوى ثلاثة أيام.. وها أنت تأتي لتتعجلني..

بادره وكيل النيابة:

. أنا لا أتعجلك.. أنا فقط أطمئن على سير الأمور..

بنفس الابتسامة قال الطبيب:

. اطمئن، فقط دعني أحصل على وقتي..

. لا أمانع بالتأكيد.. طالما أنك تدرك قيمة الوقت في قضية كتلك.

. بالتأكيد.. كما إنني أدرك أنه لا يفترض بك أن تحضر لتقابلني. بل وربما تكون خطوة غير قانونية.

نظر وكيل النيابة إلى عيني الطبيب.. كان غاضبًا، لم يتوقع ذلك الاستفزاز من الطبيب الذي يبدو مسالمًا. قاوم في البدء رغبة للرد، قبل أن يتنصر لها في النهاية، ويستسلم للحدة قائلا:

. دكتور، قبل أن تمنحني درسًا في القانون، عليك أن تدرك أهمية تلك القضية. هناك قلق وغليان في الرأي العام، فما حدث أمر غير مسبوق. هناك رغبة على أعلى مستوى في غلق ملف تلك القضية سريعًا. الضغوط تحاصرني من كل الجهات، أنا الذي عملت من قبل على عشرات قضايا الرأي العام، أتعرض الآن لضغوط أنوء بحملها. أرجو أن تتفهم الموقف.. ما نمر به يعتبر موقفًا استثنائيًا لقضية استثنائية، فيجب أن يكون تعاملك معها استثنائيًا بدوره. أرجو أن تكون قدر المسؤولية، وتتصرف تصرف المدرك لعواقب الأمور، وتضع أمامي تقريرك في أسرع وقت ممكن.. لأن هذا لن يـ...

أنهى وكيل النيابة كلامه، عندما اخترقت فتاحة الخطابات النحاسية رقبته..

سقط ولم يزل جسده يتحشرج وينتفض.. فوق رأسه وقف الطبيب يتأمل بحياد بارد خط الدماء الذي يندفع متصاعدًا حتى السقف. مع هموده الجسد، وأمام النظرة المذهولة التي ارتسمت في العينين الميتتين، أفاق الطبيب من ذهوله وصرخ:

. ماذا فعلت؟! ماذا فعلت؟!

أَلْبُـوم صُـــوَر

1.

ركزت بحثي في الركن المقابل لموضع وقوف إبراهيم، في محاولة لتفادي نظراته الضجرة التي يتعمد مواجهتي بها كلما التقت عيوننا. كعادته إبراهيم في أبعد موقع ممكن عن الثقافة.. يتعامل مع الكتب وكأنها سفن الغزو الكوني القادمة لتدمير عالمه الحبيب؛ لا يجبره على احتمال بحثي الطويل بين صفوف الكتب القديمة المتراصة كيفما اتفق . في تلك المكتبة المتخصصة في بيع الكتب المستعملة . سوى وعدي له بأن نذهب سويًا لتناول ساندويتشات الكبدة على مقهى أبو شوشة . مجلسه المفضل . في سيدي بشر، ونتابع مباراة في كرة القدم . التي لا أحبها . بين الأهلي وفريق ما.

أمر بأصابعي التي تسبق عيني على أغلفة وعناوين بعض الكتب المتهرئة المتكومة في أكوام خصصها صاحب المكتبة لأشكال الأدب المختلفة.. أعثر على نسخة من حرافيش نجيب محفوظ، فأكتشف أن أكثر من ثلث صفحاتها مفقود.

أواصل البحث، حتى تصطدم أجهزة البحث لدي بهذا الاكتشاف الغريب. أمد يدي بين أكوام الأوراق الصفراء وأستخرجه؛ عندها فقط يهتم إبراهيم ويتقدم مني متأملاً ذلك الشيء في يدي، وعلى وجهه مسحة باهتة من الانبهار..

. ماهذا؟

. ألبوم صور يا أحمق.

. كيف عرفت؟

. ألا ترى الصور المتراصة فوق صفحاته؟!

. صور من هذه؟

أردت أن أهوى على رأسه بالألبوم الثقيل لأهشمه، ولكنني فضلت مواصلة فحصي المأخوذ لتلك التحفة الفنية. كان الألبوم ذا غلاف جلدي سميك، لم أر في مثل سمكه من قبل، سماكة الجلد منحته صلابة وكأنه من خشب. اللون الأحمر القاني للغلاف كان جذابًا، بامتزاجه بالنقوش المحفورة بلون أسود لامع، لتغطي أغلب مساحته. صفحاته كانت ذات سمك وزخارف جميلة في أركانها. لم يشوه جمالها سوى تلك الصور الغريبة التي احتلت أول صفحتين. صور بدت لي حديثة، بخلاف الألبوم الذي غلب عليه الطابع الأثري.

. كم ثمن هذا؟

تساءل البائع:

. أي شيء تقصد؟

وضعت الألبوم تحت أنفه وأنا أقول:

. هذا.

صدمتني نظرات الدهشة التي سددها الرجل للألبوم في يدي قبل أن يقول:

. أين وجدته؟

أشرت بيدي..

. هنا.

بدا لي أن الرجل يتلاعب بي بشكل ما..

. خمسون جنيهًا.

. خمسون جنيهًا؟! لماذا؟!

. يا أستاذ، هذه تحفة أثرية.

اللص، لقد بدا منذ لحظات وكأنه أصلاً لا يعرفه.. أراهن أنه ابتاعه من مكان ما وألقاه هنا ونسي كل شيء عنه، والآن يريد أن يلعب معي دور راعي الآثار.

تمسكت بشراء هذا الألبوم بأي ثمن؛ وبعد عدة جولات من الفصال، غادرت المحل وأنا أحمل الألبوم الذي دفعت فيه

عشرين جنيهًا. احتملت سيلاً من تأنيب إبراهيم على إضاعة هذا المبلغ على شيء بلا قيمة..

. أنا لا أفهم.. ماذا ستفعل به؟

. سأهديه إلى علياء.. فهي تحب الأشياء القديمة.

عندها تأكد إبراهيم من جنوني. إبراهيم لطالما كان أكبر المعارضين لعلاقتي الفردية مع علياء، ويعتقد . ومعه حق . أنني لم ولن أكون في يوم من الأيام ندًا لأحمد طاهر. حاولت أن أفهمه أن المسألة ليست صراعًا بين ذكري غوريللا على أنثى في موسم التزاوج، فالعلاقات العاطفية لا تعترف بأينا أكثر وسامة، أو أقوى جسدًا، أو أوسع ثراءً.. هناك ما يسمى الحب، وعندما يتدخل القلب في الموضوع، فهو لا يعترف بهذه المقارنات.

. ولكنها تحب أحمد طاهر بالفعل.

كعادته يذكرني بتلك المعلومة..

. المسألة ليست صراعًا بينكما تسعى للتفوق فيه لكي تظفر بها.

يواصل صياحه في وجهي من مجلسنا وسط المقهى المزدحم..

. أنتما لستما ذكري غوريللا في موسم التزاوج! يا غبي هي تحبه.. ألا تفهم.. تحبه.

المشكلة التي تقتلني هي أن علياء كانت في يدي؛ منذ أول يوم لنا في الكلية أدركنا أننا صرنا صديقين، وطوال أول عامين دراسيين كنا مقربين إلى الدرجة التي يطلق عليها مسمى (الأنتيم). بعد العام الثاني، حدثت مفارقة سينيمائية، رسبت أنا وتخلفت عن الدفعة، ونجحت علياء؛ نجحت فقط لكي يظهر في دفعتهم ذلك الـ أحمد طاهر راسبًا من الدفعة الأقدم. حدث كل شيء بسرعة، وتقرب منها أحمد طاهر مستغلاً أنني لم أعد أتواجد معها بنفس الكثافة لاختلاف مواعيد المحاضرات. قبل نهاية العام الدراسي، كان قد اعترف لها بحبه، واعترفت له بدورها. في عام دراسي واحد! وأنا الذي أهواها منذ اليوم الأول لنا في الكلية، وأخشى أن أعترف لها..

. هذا لأنك أحمق.. أنت من اختار أن يلعب دور الصديق الوفي المنزه عن أي غرض.

حاولت أن أصد هجومه المستمر للمرة الأولى، قبل أن يتسبب لي في فضيحة وسط المقهى..

.كفى.. أنت لا تخبرني بما أجهله.

. طالما أنك لا تجهله، لماذا إذن تصر على المضي أكثر في هذه الحماقة؟!

. هذا الألبوم سأهديه لها في عيد مولدها.. مجرد هدية من صديق لصديق.

نظر إليَّ شذرًا لوهلة، ثم دفن ما تبقى من ساندويتش الكبدة في فمه مفضلاً الصمت.

انشغلت أنا بمطالعة الألبوم؛ وجوه عديدة احتشدت في صور شخصية صغيرة ملأت أول صفحتين من صفحاته..

. ما هذه الصور الغريبة؟

. وكيف لي أن أعرف.. تبدو كصور رسمية بشكل أو بآخر.

الصور كلها بنفس الحجم.. كلها تحمل ذات الخلفية السوداء.. حتى وجوه الناس في الصور، بالرغم من اختلاف أعمارهم وأجناسهم، إلا أنهم جميعًا اجتمعوا على تلك النظرة المتجهمة الخالية من أي تعبير التي يتطلعون بها إلى الكاميرا..

. احذر.

أفقت من تأملي للصور على هذه الصيحة من فم إبراهيم، لأكتشف أنه كان يوجهها لحارس مرمى الأهلي، ليحثه على التصدي لكرة ما.

. أتعرف؟ أنت على حق.. يجب أن أنسى حبي لعلياء.

. مرحى.. ليتك تصدق هذه المرة.

كنت شاردًا أقلب صفحات الألبوم بلا أي هدف، وأنا أواصل حديثي..

. أنت فقط لم تجرب مشاعري يا إبراهيم.

ترك إبراهيم المباراة ونظر لي بلوم..

. أنت تعرف أنني كنت على علاقة حب بزميلة في عامي الدراسي الأول.

قلت ساخرًا وأنا أحاول أن أتخيل إبراهيم في موقف رومانسي:

. بالطبع.. لكم كنت أتمنى أن أراك وأنت في حالة حب.

هنا كنت قد وصلت إلى آخر صفحات الألبوم.. فيها وجدت أربع صور لم أكن قد انتبهت لها من قبل.. حتى إبراهيم انتبه ومد عنقه ينظر معي لتلك الصور الأربع.

احتجت أنا لبعض التركيز في الصور، قبل أن أفهم لماذا سقط كوب الشاي من يد إبراهيم.. فقد كانت الصور الأربع تظهره جالسًا مع فتاة، لم أرها من قبل، في أربعة أماكن مختلفة داخل الجامعة.

***

أشعل إبراهيم سيجارته غير عابئ بالتحذير الذي صدر مني بغير حماس. صحيح أنه لا يجب أن يدخن في بيتي، ولكن

الحالة العصبية المزرية التي كان يمر بها جعلتني راغبًا في التلطف معه.

.كيف فعلتها؟!

سألني للمرة الألف، فأجبته:

. قلت لك: لا أعرف.

كان الألبوم موضوعًا أمامنا فوق فراشي، في حين جلسنا ننظر إليه وكأنه شيطان رجيم..

. فلنجرب مرة أخرى.

كنا قد غادرنا المقهى مسرعين إلى منزلي، لكي نحصل على فرصة لتأمل الأمر في هدوء؛ فما حدث فاجأنا وتسبب في فضيحة سقوط كوب الشاي من يد إبراهيم.

. ربما كان في هذا الأمر خطورة.

نفث دخان سيجارته وهز رأسه نفيًا بعنف وهو يقول:

.كلا.. دعنا نجرب.

ثم فتح الألبوم وبدأ يقلب صفحاته وهو يعلق:

. لقد كنت تقلب صفحات الألبوم هكذا، ثم تمنيت أن تراني في موقف رومانسي، فحدث.

. بالضبط.

. دعنا إذًا نتمنى أن نرى... نيكول كيدمان عارية!!

بالطبع كانت أمنية تتناسب مع مستوى طموح إبراهيم الذي أعرفه. حين رأينا أربع صور تظهر ما تمناه في أخر صفحات الألبوم، لم يقو أي منا على فتح فمه.

تعلقت أنظارنا بالصور في صمت.. قطعه إبراهيم بعد فترة..

. هذا الشيء رائع.

نظرت له باستنكار:

. رائع!

. بالطبع.. ألم تر يا رجل؟ إنها نيكول كيدمان عارية.

. أهذا كل ما يهمك؟!

. بالطبع.

صحت به مشمئزًا:

. هذا الشيء شيطاني.. يجب أن نتخلص منه.

. حسنًا، أعطه لي.

ثم عاد ينظر للصور غير عابئ بنظراتي المصعوقة إلى وجهه..

. أتمنى أن أرى شاكيرا عارية.

وضعت يدي فوق صفحة الألبوم لأداريها وأنا أصيح:

. كف عن هذا الهراء أرجوك.. هذا الشيء ليس لعبة.

ولكنه أزاح يدي وهو يصيح بدوره:

. انظر.. انظر، لم يحدث شيء.

انتبهت هذه المرة.. بالفعل لم تتغير الصور الأربع.

مد يده للألبوم وهو يقول:

. أعتقد أنه من المفروض أن نتمنى ونحن نقلب في صفحاته.

بدأ يقلب في الصفحات، فعاجلته قائلاً:

. فقط اطلب طلبًا محترمًا أرجوك.

نظر إليّ في دهشة لا أعرف مصدرها قبل أن يقول:

. اطلب أنت إذن.

راقتني الفكرة لوهلة، قبل أن أغرق في حيرة.. ماذا أطلب؟

عندها جاءتني فكرة. مددت يدي وبدأت أقلب في الصفحات وأنا أقول:

. أتمنى أن أرى ما تفعله علياء الآن.

بلهفة أزحت الصفحات سعيًا نحو الصفحة الأخيرة..

. هذا ليس طلبًا محترمًا بالمناسبة، فربما تكون الآن في الحمام.

تجاهلت تعليق إبراهيم السمج، وقد بلغت موضع الصور الأربع. كانت تظهر علياء جالسة في مكان ما مع أحمد طاهر! أغلقت الألبوم بعنف وأنا أصيح:

. اللعنة! ليتها كانت في الحمام.

. يا صديقي، ماذا كنت تتوقع غير هذا؟!

نظرت لوهلة إلى وجهه صامتًا، قبل أن أقول بناءً على فكرة جاءتني:

. اسمع، هذه الصور ليست حقيقة.. إنها خدعة من الشيطان الذي يسكن ذلك الألبوم.

بإصرار أحمق قال:

. ولكن صوري مع إيمان لم تكن خدعة.. لقد كانت حقيقة.. حقيقة بأدق تفاصيلها.

واصلت عرض نظريتي:

. هذا لأنه عرض شيئًا حدث في الماضي, ولكن من أين له أن يعرف بما يحدث الآن في مكان بعيد؟

. ربما لأنه .كما قلت أنت . هناك شيطان يسكنه.

أشحت بوجهي مرتبكًا، غير راغب في الخوض في المزيد من هذا، ولكن صوته جاءني بطريقته الصبيانية المتحدية:

. طالما أنك غير مؤمن بهذا، دعنا إذن نجرب أمرًا.

ثم مد يده للألبوم يقلب صفحاته وهو يقول:

. أتمنى أن نرى علياء عارية.

قبل أن يصل للصفحة الأخيرة، انقضضت على الألبوم أختطفه من يده بعنف وسط ضحكاته المرحة، وأنا أصرخ:

. أنت حيوان.

من بين ضحكاته الرنانة قال:

. بربك.. ألا ترغب في إلقاء نظرة؟

كدت أن أسبه، ولكنني تراجعت. أعدت وضع الألبوم أمامي على الفراش، وبدأت أقلب في صفحاته وأنا أقول:

. أتعرف ما أريد حقًا أن أراه الآن.. أريد أن أرى أحمد طاهر ممددًا على قارعة الطريق غارقًا في دمائه.

أوصلني تقليب الصفحات إلى الصفحة الأخيرة، فوجدت الصور الأربع المعتادة، تظهر أحمد طاهر ممددًا على الأسفلت غارقًا في دمائه.

. أهذه الصور البشعة، أفضل من صور فتاة عارية؟!

بالطبع كان قائلها إبراهيم، فأجبته وأنا أتأمل الصور بشيء من التشف:

. أجل، فهذه الصور تشفي الصدور.

. أنت معقد.

نظرت إليه قائلاً باستهتار:

. لماذا؟ لقد وجدت لهذا الشيء فائدة أخيرًا.

***

رحل إبراهيم أخيرًا، بعد جلسة طالت حتى قرابة منتصف الليل. لم يرحل إلا بعد أن استدعى صورًا لكل أساتذة الكلية الرجال في ملابس نسائية! اضطررت أن أجاريه حتى يرحل راضيًا متشبعًا بتلك التجربة، التي ما كنت أنوي تكرارها.

بعد أن رحل، قمت بدفن الألبوم تحت أطنان من ملابسي الصيفية، التي تخزنها أمي في دولابي، وقد عزمت على الخلاص منه في أقرب فرصة ممكنة.

وليومين، عشت حياة عادية تمامًا، كدت أنسى خلالهما أمر الألبوم.. حتى علمت أن أحمد طاهر صدمته سيارة مسرعة ومات!!

***

2.

أخبرت إبراهيم عبر الهاتف بما هو حادث، فجاء إلى بيتي في زمن قياسي..

. أنت متأكد؟!

قالها وهو يملأ فراغ حجرتي بجسده المرتجف توترًا..

. وهل في هذا الأمر شك؟! ثم إن الحادث على بشاعته منشور في كل صفحات الحوادث اليوم.

أطرق مفكرًا.. طال تفكيره.. جلس على طرف الفراش.. تنهد.. أشعل سيجارة.. ثم قال:

. ربما هي مصادفة.

. وربما الألبوم هو من فعل هذا!

بحدة صاح:

. الألبوم لا يفعل شيئًا.. هو فقط يرينا ما سيحدث.. واضح أن لديه قدرة تنبؤية ما.

نظرت إليه لاعنًا غبائه وأنا أقول:

. قدرة تنبؤية بمستقبل يحدث حسب الطلب؟! أنسيت أنني أنا من تمنى أن يغرق أحمد طاهر في دمائه؟ لقد حقق هذا الشيء أمنيتي فعليًا.

هز رأسه رافضًا..

. مستحيل.

بإصرار قلت له:

. دعنا نجرب إذن.

قمت واستخرجت الألبوم من مخبئه، ووضعته أمامي؛ كنت قد فكرت في هذا الاختبار منذ فترة، ولكن لم أشأ أن أقوم به إلا أمام إبراهيم. كانت هناك في حجرتي مزهرية صغيرة، فقلت وأنا أقلب في صفحات الألبوم:

. أتمنى أن أرى تلك المزهرية تتهشم لمئة قطعة.

جلبت الصفحة الأخيرة لتطالعني صور أربع لشظايا المزهرية على أرض حجرتي..

. أرأيت؟ مجرد صور.

قالها إبراهيم قبل ثانية من سقوط المزهرية المفاجئ من فوق طاولتها، وتهشمها لعشرات الشظايا الصغيرة.

غلفنا الصمت بعدها لفترة لا يعلم مداها إلا الله. في النهاية قال إبراهيم ما كان يجب أن أسمعه منه:

. علينا أن نتخلص من هذا الشيء.

قلت له مسرعًا:

. لنفعل حالاً.

قال متوترًا:

. ماذا إذن لو عجزنا عن تدميره كما يحدث لتلك الأشياء الشيطانية في أفلام الرعب؟!

. ومن قال إننا سندمره.. نحن سنتخلص منه.

. كيف؟

في شارع قريب من شارعنا، كانت تلك الأرض الفارغة إلا من جدار واطئ يلف حدودها، وكعادة كل أرض فضاء، استخدمها الناس لإلقاء قمامتهم من فوق جدارها. وهو ما فعلناه بمنتهى البساطة؛ أطحنا بالألبوم عبر الجدار، ولم يبق أمامنا بعدها سوى التعامل مع ضمائرنا لإخراسها..

***

لا أذكر عدد الأيام التي مرت تحديدًا، قبل أن يأتيني إبراهيم في الكلية بوجه شاحب وأعصاب محطمة، ليقودني من ذراعي لنمشي معًا، مبتعدين عن أصدقاء كنت أقف بينهم..

. لقد زارني بالأمس.

نظرت لأعماق عينيه المحمرتين مستفهمًا..

. من هذا الذي زارك؟

تطلع حوله قبل أن يقول:

. شبح أحمد طاهر!

بهتّ لفترة ليست بالقصيرة، ولم أقو على الكلام.. أعتقد أن دقائق مرت قبل أن أقول:

. إبراهيم.. أنت تهلوس.

صاح بي:

. أتعني أنني جننت؟

. كلا، إنه فقط ضميرك ينوء بحمله.

بصوت أعلى صاح:

. المسألة ليست كما تظن.. الأمر حقيقي تمامًا.

خشيت أن يعلو صوته أكثر، فحاولت مجاراته:

. كيف حدث هذا؟

خيل إليّ أن دموعًا التمعت في عينيه وهو يقول:

. حدث طوال الليل.. لم يفارقني لحظة.. لم يفعل سوى أن وقف بجوار فراشي طوال الليل في الظلام.

بشكل بديهي قلت:

. ولماذا لم تضئ الحجرة؟

. فعلت مرة فاختفى.. ولكن شقيقي اعترض بشدة لأن الضوء منعه من النوم.. وأنت لا تتوقع أن أقول لشقيقي الكبير إن معنا في الحجرة شبحًا.

صمت قليلاً ثم عاد يضيف:

. قضيت الليل كله أتطلع إليه، وهو يتطلع إليّ في ثبات.. قرأت كل ما أحفظه من آيات القرآن.. ولكنه أبى أن ينصرف؟

أسقط في يدي، ولم أعرف ماذا أقول له. حاولت أن أخفف عنه بأي كلام؛ قلت له إن أعصابه مرهقة مرة، وقلت له مرة إن عليه بالصلاة وقراءة القرآن، ومرة أخبرته أن هذا الأمر سينتهي إذا أعطى لنفسه الفرصة لكي ينساه.

في النهاية لم يقتنع بآرائي، كما لم أقتنع أنا بكلامه، وذهب غير راض. ما أخافني من كلماته، ثقتي أنه يقف على حافة الجنون، وفي هذه الحالة قد يتكلم بأي شيء، لأي أحد، ويحكي عما حدث. في نهاية النهار، كان قد ذهب عني الخوف، بعد أن تبين لي أنه حتى لو تكلم فلن يصدقه أحد.

ليلتها قضيت أمسية طويلة في حجرتي أمام الكومبيوتر. رجفة في قلبي جعلتني أهاب لحظة أن أطفئ النور وأنام؛ اللعنة عليك يا إبراهيم، لقد سحقت أعصابي.

حمدت الله على أنني أنام في حجرتي وحيدًا، مما يجعل لدي ميزة أن أنام في الضوء دون أن أضطر لتفسير ذلك لأحد. بمواجهة باب حجرتي هناك حجرة شقيقتيَّ، قد أغلق عليّ الباب حتى لا يتسلل ضوء حجرتي عبر باب حجرتهما المفتوح.

ضغطت أمر إغلاق الجهاز، وبقيت بعينين ناعستين أتابع عملية الإغلاق البطيئة.. في النهاية، أظلمت الشاشة وصمتت أصوات المراوح وهدير القرص الصلب.. لحظتها لمحت على صفحة الشاشة السوداء انعكاس لمن يقف خلفي..

أجفلت هلعًا، فلم أجد أحدًا.

جمدت في مكاني محاولاً إقناع نفسي بأنني أتوهم، تحت تأثير النعاس وحكاية إبراهيم المخيفة؛ ولكن ما من شيء أكثر استحالة على الإنسان من أن يقنع نفسه بأنه يتوهم.. كيف يقتنع عقلك بأن به خلل ما؟! لذا، كلما حاولت أن أضع في رأسي احتمال التوهم، بقى عقلي يرسل في كل مكان إشارات تؤكد صدق ما رأيت، تلك الإشارات التي كانت من القوة

بحيث بثت في جسدي رجفة، وأطارت من عيني أي أثر للنعاس.

لدقائق، لم أستطع أن أنهض عن المقعد المعدني الذي أجلس عليه أمام طاولة الكومبيوتر.. ثم في النهاية نهضت إلى حيث فراشي الملتصق دائمًا بالحائط. تكومت فوقه ملصقًا ظهري بحائط الحجرة، كافيًا نفسي شر المفاجآت التي تأتي من الخلف.

كان قلبي يدق بسرعة، وكنت أصيح في نفسي بصوت عال:

. اهدأ.

ثم تعالى صوتي أكثر، واكتسب صرامة، وكأنني أصرخ في طفل شقي:

. اهدأ.

عندها، وأنا في هذه الحالة من التوتر، انفجر في الحجرة رنين هاتفي المحمول. انتفضت من مكاني مع الانبعاث المفاجئ للصوت، انقضضت على الهاتف وقد تضاعف توتري محاولا تخيل السبب الذي يجعل إبراهيم يتصل بي في هذا الوقت من الليل..

. ألو، ماذا حدث يا إبراهيم؟!

هيأ لي صوته أنه يبكي.. يبكي بكاءً مريرًا.. بكاء ما كنت أظنه يصدر عن إبراهيم بارد الأعصاب..

. إنه هنا.

كان صوته هامسًا مختنقًا، فصدَّر إليَّ رعبًا لا حدود له..

. هنا؟! كيف يا إبراهيم؟

. أنا أحدثك من فوق فراشي.. مختبئًا تحت الدثار كالأطفال.. وليس هذا فقط...

صحت به ليستمر:

. ماذا حدث أيضًا؟

. لقد تبولت على نفسي.

شعرت بقشعريرة لكلمته تلك، وتعاطفًا بلا حدود..

. ماذا يفعل يا إبراهيم؟

. لا شيء.. فقط يحدق بي مثل المرة السابقة.

شعرت بمسؤلية تجاه صديقي المقرب، صاحبها شعور ممض بالعجز.. أنا حتى لا أجد نصيحة مقنعة لأقدمها له. أخرسني اليأس.. شعرت بنفسي على حافة البكاء.. ساءت حالتي مع سؤاله:

. ماذا أفعل؟

يجب أن أقول له شيئًا.. أي شيء.

هنا، طرق أحدهم باب حجرتي المغلق..

ماذا يريدون مني في تلك الساعة؟ لا أعتقد أن صوتي كان مرتفعًا إلى هذا الحد..

. انتظر قليلاً يا إبراهيم.. سأفتح الباب.

نهضت إلى الباب والهاتف لم يزل على أذني.. فتحته، فوجدت الردهة المظلمة خالية..

تراجعت بظهري حتى ألصقته في أقرب حائط.

. إبراهيم، أحدهم طرق باب حجرتي، فلما فتحته لم أجد أحدًا.

. إنه هو.. لا شك في هذا.

. ولكنه عندك.

. إنه شبح يا غبي.. شبح يمكنه أن يفعل أي شيء.

تعالى صوته قليلاً، فبلغني عبر الهاتف صوتًا خشنًا يهتف عن بعد بكلام لم أتبينه..

. سأغلق الآن.. لقد استيقظ أخي على صوتي.

بسرعة صحت:

. انتظر.. أخبرني أولاً، أمازال عندك؟

ساد صمته لفترة، بلغني أثناءها صوت لهاثه الثقيل..

. أجل.. لقد نظرت من فرجة أسفل الدثار فوجدته واقفًا كما هو.

كنت أفكر في أمر ما..

. إذا كنت تقول أنه قد يكون عندي أنا أيضًا.. فلماذا لا أراه مثلك؟

قال بعد برهة صمت:

. أليست حجرتك مضاءة؟

. بلى.

. ربما لهذا لا تراه.

هذا بالضبط ما فكرت فيه، وهذا تمامًا ما كنت أنوي تجربته..

. انتظر إذًا، سأجرب أن أطفئ النور.

وحتى لا أمنح نفسي فرصة للتراجع.. عالجت مفتاح الإضاءة بضربة سريعة، فساد الظلام كامل الحجرة.

***

3.

كل الأفكار التي توصلت إليها تبدأ وتنتهي بالألبوم.. وهذا لا يعني سوى أمر واحد..

. يجب أن نعيد الألبوم.

قلتها لإبراهيم ونحن نجد الخطى في الشارع عائدين من الكلية..

. وبما سيفيدنا هذا؟

. أشعر أن فيه خلاصنا من هذه اللعنة.

مع نطقي لكلمة (اللعنة) تذكرت مشهد أحمد حافظ الواقف على بعد سنتيمترات قليلة من وجهي في قلب الظلام، مضرجًا بدماء متخثرة، فتشنج جسدي للحظة بفعل قشعريرة قوية ضربته.

كنت قد قررت أن أستعيد الألبوم بأي شكل.. بل وبدأت في تنفيذ عملية استعادته حتى قبل أن أعلن عنها لإبراهيم. أثناء انهماكنا في الحديث، كنت أقوده دون أن يشعر إلى موضع الأرض التي ألقينا فيها الألبوم.

. والآن عليك أن تحدد معي الموضع من الجدار الذي ألقينا عبره الألبوم.

قلتها وأنا أشير إلى الجدار الذي يحيط بالأرض، والذي امتد أمامنا بطول بدا لنا أكبر مما كان عليه عندما جئناه ليلا.

. أعتقد أنه هذا الموضع تمامًا.

. أمتأكد أنت؟

. بالطبع لا.. ولكن يجب أن تجرب.

تسلقت الجدار عبر أكثر من حجر ناتئ في صفوف حجارته غير الممهدة. ألقيت نفسي من الناحية الأخرى فوق أطنان من أكياس القمامة، وتناثر بقايا طعام متعفن، وعدة جثث لطيور منزلية نافقة.

مأزقنا الخاص كان أكبر من أي شعور بالاشمئزاز، لذا بدأت أتفقد تلك الأشياء باحثًا فيما حولنا عن الألبوم.

بعد قرابة نصف الساعة من البحث وجدته.. لا يمكن أن أصف فرحتي لحظتها.. احتضنته وخرجت كما دخلت.

هرعت إلى منزلي ومعي إبراهيم؛ تجاهلت تعليقًا عابرًا من والدتي على رائحتي، وأغلقت علينا باب الحجرة..

. والآن.. ماذا علينا أن نفعل؟

. لا علم لي على الإطلاق.

مد إبراهيم يده يعبث في صفحات الألبوم قليلاً، قبل أن يقول بلهجة ساخرة:

. دعنا نطلب منه أن يرينا طريقة الخلاص.

أثناء عبثه في صفحات الألبوم، استحضر أول صفحتين منه، حيث تلك الصور الغريبة.. مددت يدي أستوقفه ليتركه مفتوحًا على تلك الصور..

. برأيك.. ما كنه هذه الصور؟ وماذا تفعل في هذا الشيء الشيطاني؟

مط شفتيه بتعبير الجهل الشهير، ثم قال:

. صور عجيبة هي. ملامحهم بلا حياة، وكأنهم ميتون.

هنا ضربت رأسي فكرة مجنونة. كلمته البسيطة تلك جعلت الحل يقفز إلى عقلي بشكل مباغت. مددت يدي واستخرجت صورة منهم من مكانها، وقلت وأنا أقربها من عيني:

. ماذا لو كانوا كذلك فعلاً.

. ماذا تعني؟

أدرت الصورة، فوجدت تاريخ يوم ما مطبوعًا على ظهرها..

. لقد قرأت مرة في رواية رعب أن بعض الوثنيين يعتقدون أن الصور تحبس روح صاحبها بداخلها.

رأيت توجس عميق يرتسم على وجه إبراهيم..

. وما علاقة هذا بموضوعنا؟

. دعني أتأكد من نظريتي أولاً.

أكسبتني اللهفة سرعة البرق، فلم أدر متى أدرت جهاز الكومبيوتر، ومتى جلست أمامه، ولا متى دخلت على الإنترنت وولجت إلى موقع تلك الجريدة اليومية العريقة..

. ماذا تفعل؟

كتبت التاريخ المدون على الصورة في الصندوق المخصص للبحث عن الأعداد القديمة من الجريدة. ظهر العدد أمامي بصفحته الأولى، فانتقلت إلى صفحة الحوادث. بحثت عن بغيتي فلم أجد لها أثرًا. رفعت يدي محبطًا عن لوحة الأزرار، في حين مازال إبراهيم يتساءل:

. ماذا تفعل أيها الأحمق؟

بالفعل أنا أحمق.. إذا افترضنا أن التاريخ المدون على ظهر الصورة هو تاريخ وقوع الحادث، فالنشر في الجرائد لن يكون إلا بعدها بيوم على الأقل.

أعادت اللهفة تشغيل محركاتي من جديد، فطبعت في صندوق البحث تاريخ اليوم التالي.. دخلت إلى صفحة الحوادث.. قلبت في الأخبار بسرعة.. هذه المرة وجدته..

أطلقت صيحة انتصار مع ابتسامة عريضة اخترقت وجهي..

. هل لي أن أفهم شيئًا.

ناولته الصورة التي في يدي، وأشرت إلى الخبر الذي تحتل صفحته شاشة الكومبيوتر..

. اقرأ.

بدأ يقرأ بصوت عال:

. سقط من الطابق التاسع وهو يحاول إصلاح إيريال التليفزيون.. توفى أمس محمد عبد الجواد حليم رب منزل 45 سنة..... سقط من فوق سطح بناية من تسع طوابق..... اختل توازنه.....ونقل إلى مستشفى....

ثم نظر إلى قسمات وجهي بادية السعادة بمزيد من الدهشة..

. وماذا يعني هذا الخبر؟

. انظر إلى صورة الضحية المرفقة مع الخبر، وانظر إلى الصورة في يدك.

عندها فهم أنه يمسك بيده صورة محمد عبد الجواد حليم رب منزل **45** سنة.

. وما المقصود بهذا؟

. أراهن أن هذا الرجل قتله الألبوم.. وأراهن أننا لو بحثنا عن صاحب كل صورة، سنجده توفي في حادث بشع في نفس التاريخ المدون على ظهر الصورة.

ابتسمت معجبًا بذكائي في حين قال إبراهيم:

. إذا افترضنا أن الألبوم يحتفظ بصور ضحاياه، فأين صورة أحمد حافظ؟

. هنا نأتي للشق الثاني من استنتاجي العبقري. هذه ليست صور عادية، هذه تمامًا كما كان يظن الوثنيون. أقصد أنها أرواح الضحايا. الألبوم يقتلهم ويحتفظ بأرواحهم في شكل تلك الصور.

فغر إبراهيم فمه بشكل ما كنت أعتقد أنه ممكن فيزيائيًا..

. أتعني أنني أمسك الآن بروح شخص ما؟

. بشكل ما نعم.. هذا هو ما أعتقده.

ألقى بالصورة في وجهي وهو يصيح:

. اللعنة عليك.

ثم:

. ولكن لماذا لم يحتفظ الألبوم بروح أحمد حافظ؟

وهكذا وضع يده على نقطة الضعف..

. ربما الألبوم لا يفعل هذا من تلقاء نفسه.. وربما لهذا السبب مازالت روحه حرة تطاردنا.. وربما كان علينا نحن أن نفعل ذلك.

. كيف؟

. هل تعتقد أنني أمتلك دليلاً لطريقة استخدام الألبومات الشيطانية؟!

استفزه كلامي فاختطف الألبوم..

. دعني إذن أجرب طريقتي السهلة.

أخذ يقلب في الصفحات بعصبية بادية وهو يقول:

. أتمنى أن تحبس روح أحمد حافظ بين صفحات هذا الألبوم.

قالها وألقى الألبوم أمامي مستهترًا، حتى دون أن ينتظر نتيجة تجربته..

. ما رأيك في أسلوبي.

قالها ساخرًا.. فلم أرد عليه حتى طالعت أول صفحتين من الألبوم.. عندها قلت له:

. لقد نجح.

انقض على الألبوم يختطفه من يدي.. ومذهولاً تأمل صورة أحمد حافظ التي احتلت موقعها في ركن خال من أركان الصفحة اليمنى.

. ولكن كيف؟

ضربني لحظتها المزيد من الفهم..

. هذا الألبوم أداة قتل. صانعه، أو مالكه الأول، وربما ملاكه التاليين، كانوا يستخدمونه لقتل أعدائهم، ثم يحبسون أرواحهم فيه كي لا تطاردهم. ولهذا لم يمسك الألبوم بروح أحمد حافظ إلا عندما طلبت منه أنت أن يفعل. الألبوم لا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه، يجب أن تطلب.

. أيعني هذا أن الأمر قد انتهى؟

قلت له وأنا أمط شفتي:

. هذا ما سوف نكتشفه.

***

مرت بضعة أيام لم أحص عددها.. توجسنا كثيرًا.. وترقبنا كثيرًا.. ولكن شيئًا لم يحدث..

عندها أدركنا أن الأمر قد نجح بالفعل.

طوال تلك الأيام كان الألبوم مازال في مخبئه أسفل خزين ملابسي الصيفية. لا أخرجه إلا لثوان معدودة كل فترة، لكي أتأكد من أن صورة أحمد حافظ مازالت هناك.

اليوم قابلت إبراهيم في الكلية وتحدثنا عن الأمر. استقر بنا الرأي إلى اعتبار الأمر منتهيًا عند هذا الحد، وأن التخلص من الألبوم بات واجبًا من جديد. غادرت الكلية وقد تعهدت له بأن أتخلص منه الليلة.

عدت إلى البيت، لأجد حالة من الحركة النشطة. والدتي في حجرتي تفعل شيئًا ما، وسوسن شقيقتي الطفلة تجلس إلى مائدة الطعام تقرأ من كتاب ما مفتوح أمامها. مررت بها إلى حجرتي، فوجدت والدتي تصف أكوامًا من الثياب في خزانة الملابس..

. ماذا تفعلين؟

. أخرجت ملابسك الصيفية، وأضع الشتوية مكانها.

حط عليّ الذهول، فلم أدر ماذا أفعل..

. ما بك؟ تبدو مذهولاً.. ألم تدرك بعد أن الشتاء بات وشيكًا.

. كان هناك شيء ما هنا.. تحت الملابس الصيفية.

. أتقصد ذلك الألبوم الفارغ؟

حملت كومة من الملابس ودستها وسط زميلاتها وهي تضيف:

. مع سوسن تتفرج عليه.

لن أتحدث عن السرعة التي غادرت بها الحجرة إلى حيث سوسن، التي كانت تقلب في صفحات الألبوم:

. دعي هذا الشيء من يدك.. إنه لي.

هممت بالانقضاض عليها لاختطافه من بين يديها.. ولكن صيحة صارمة من أمي أوقفتني..

. ما بك؟ دعها تشاهده.. إنه فارغ تقريبًا كما رأيت بنفسي.

. ومن أعطاك الحق أصلاً أن تتصفحيه؟

. تأدب يا ولد.

تركتها، وسددت نظرة نارية إلى سوسن صائحًا:

. هذا الشيء لي.. وأنا أريده حالاً.

كانت الصغيرة مازالت تقلب في صفحاته الفارغة، عندما وجهت لي نظرة ملأتها الكراهية، ثم أغلقت الألبوم بعنف، وانطلقت باكية إلى حضن أمها.

. أنا لن أسكت على تصرفك هذا.. وليكن لوالدك شأن معك عندما يأتي.

تجاهلتها تمامًا وانقضضت على الألبوم وفي رأسي فكرة واحدة..

بماذا كانت تفكر سوسن وهي تنظر إليّ بتلك النظرة..

لقد كانت تقلب الصفحات لحظتها.. فربما...

وصلت عندها إلى صفحة الألبوم الأخيرة.. لم أجد شيئًا، فحمدت الله، وزفرت كل توتري. عندها بدأت الصور الأربع في الظهور.. تدريجيًا وببطء، وكأنما تتعمد التلاعب بأعصابي. في النهاية اكتملت.. واتضحت.. وبات بمقدوري أن أميز وجودي في الصور..

أو إذا شئنا الدقة.. ما احتوته الصور كان جثتي المحترقة

الروحانى

مقدمة

الأسانسير، كان يتصدر مدخل البناية العتيقة الواقعة عند تقاطع شارع أحمد عرابي مع شارع فؤاد، في منطقة وسط البلد بالإسكندرية. الأسانسير، في تلك اللحظة، كان هو مقصد الأستاذ حمدي صادق.

متأنق كعادته، عبر الأستاذ حمدي صادق مدخل البناية، في ليلة شتوية، عجنت الهواء برائحة الأسفلت المبتل.. يحمل حقيبته الجلدية السوداء، والتي لا تحتوي على شيء تقريبًا، سوى اعتقاده الخاص بأنها تضفي عليه مظهرًا عمليًا. حداثة عهده بعالم الأعمال الخاصة جعله يصاب بما يشبه الاهتمام المرضي بكل ما يخص تفاصيل مظهره. كثيرًا ما كان يردد: إن عالم المال لا يعترف سوى بالمظاهر؛ إذا بدوت كمليونير، فالناس كلها ستعاملك على هذا الأساس، وإذا أظهرت ثقتك بنفسك، فستجبر الآخرين على تسليم زمامهم لك.

بنفس المنطق كان حرصه على الوصول في موعده تمامًا، بلا أية ثانية ناقصة أو زائدة. هذه الدقة ستمنح أصحاب شركة

الدعاية الكبيرة، التي يقصد مكتبها في هذه البناية، انطباعًا عنه كرجل يتمسك بكلمته؛ قد يساعده هذا في الحصول على موافقتهم على تقسيط المبلغ المطلوب، مقابل حملة الدعاية لسلعه المستوردة.

قطع المسافة الطويلة نسبيًا بين بوابة البناية وبين درجتي السلم الرخاميتين بخطوات واسعة، وهو يراجع في عقله الشكل الأمثل للحديث مع مدير شركة الدعاية. يجب أن يقنعه بمد أجل الأقساط، دون أن يترك لديه انطباعًا بعسر حاله. يجب أن يجعله يتعاطف معه، دون أن يكسر حاجز الاحترام والكلفة بينهما. مهمة شاقة هي كما يراها، ولكنه يثق في قدراته كرجل المهام الشاقة. ذات القدرات التي انتشلته من دوامة الوظيفة الحكومية، حيث لا طموح لأعماله أكبر من سماع كلمة مديح من السيد وكيل الوزارة، لتصنع منه رجل أعمال انفتاحي مخلص، أسس مكتبه للاستيراد، وتوصل للاتفاق مع شركة يونانية لاستيراد منتجاتها، التي ستبهر المصريين قريبًا.

ضغط زر استدعاء الأسانسير، ووقف ينتظر وهو يصفي ذهنه من كل هذه الأفكار المتطايرة، ويستعيد تركيزه على الهدف المنتظر من تلك المقابلة..

توقف الأسانسير أمامه.. له باب معدني خارجي مشغول بأشكال زخرفية من حديد، وعبر بئر السلم المقفول بشبكة

صلب، يجري الأسانسير الذي لا يتسع لأكثر من ثلاثة أفراد؛ له باب خشبي ذو ضلفتين، تفتحان في كلا الاتجاهين. تحتوي كل ضلفة على لوح زجاجي شفاف يلتهم نصف مساحتها، ليظهر بوضوح ما بداخل الأسانسير.

الأسانسير، عندما توقف أمام الأستاذ حمدي صادق، كانت تلك الفتاة بداخله. فتح لها الباب الخارجي بدافع من اللياقة، وانتظر أن تقوم هي بدفع ضلفتي الباب الداخلي لتخرج، ولكنها لم تفعل.. دفع هو الضلفتين وسألها:

. خارجة؟

ببطء هزت رأسها أن "لا". من النظرة الأولى جذب انتباهه مظهرها المزري؛ شعرها كثيف ومشوش، ملابسها بدت له بالية باهتة الألوان، حتى بشرتها كانت رمادية، وكأنها كانت تستحم في بحر من الأتربة. عندما دس جسده بجوارها في الأسانسير، التقط رائحة كريهة نفاذة، قدر أنها تنبعث منها. حمد الله على أنه قد احتاط ووضع في حقيبته زجاجة البارفان المستوردة، التي تأكد أنه سيغرق نفسه في عطرها بمجرد أن يغادر الأسانسير، خشية أن تعلق تلك الرائحة بملابسه.

نظر إلى الفتاة، وبلمحة أخرى من اللياقة سألها:

. أي طابق؟

أشارت الفتاة بأصابعها الطويلة النحيلة برقم ستة..

ضغط الأستاذ حمدي على زر الطابق رقم ثلاثة، حيث مقصده، ثم زر الطابق رقم ستة..

الأسانسير تحرك صعودًا، حين كان الأستاذ حمدي صادق يحاول أن يهدئ قليلاً من توتره.. شعور مخيف بوجود خطب ما في تلك الفتاة.. ربما هي مجنونة.. طريقتها المتشنجة في الحركة.. وتلك النظرة.. يالها من نظرة!.. تلك النظرة الميتة الغامضة ليست سوى نظرة مجنون أو مدمن. هو يسمع كثيرًا عن أنواع المخدرات الخطرة التي باتت تملأ البلد مؤخرًا، يقولون إن مدمنها يمكن أن يرتكب أبشع الجرائم. ارتجف بفعل تلك الفكرة، وتمنى لو يسرع الأسانسير ليسبق أفكاره السوداء.

وصل الأسانسير أخيرًا إلى الطابق الثالث، ولكنه لم يتوقف.. توتر الأستاذ حمدي أكثر.. كان هناك زرًا في لوحة الأزرار مكتوب عليه (stop)، فكر في ضغطه، ولكنه وجد أن هذا ليس من اللياقة، فربما الأسانسير القديم لم يستطع أن يطيع أمرين في وقت واحد. لا يملك إذن سوى أن ينتظر استقرار الأسانسير في الطابق السادس لتهبط الفتاة أولاً.

في الطابق السادس، فتح الأستاذ حمدي باب الأسانسير الداخلي، ثم الخارجي، وخرج. سار خطوتين، ثم استدار مع

استدارة السلم حيث الدرجات الصاعدة إلى سطح البناية.. دفع باب السطح، وخرج إلى الرياح الشديدة في تلك الليلة الشتوية.. تغطيه غيوم رمادية منخفضة تزيد الليل ظلامًا. تقدم بخطوات واثقة حتى بلغ الجدار الواطئ الذي يحيط بالسطح.. نظر إلى أسفل.. السيارات تجري في شارع فؤاد المبلل بمياه أمطار هطلت منذ وقت قريب.. ابتسامة عفوية ارتسمت على شفتيه، عندما قدر المسافة الكبيرة على ارتفاع الطوابق الست العالية. مستشعرًا لذة الإقدام على مغامرة، ونشوة كشف غموض التجارب الجديدة، صعد ليقف فوق الجدار.. واستجابة لنداء صامت يتصاعد من مكان ما بداخله.. قفز.

***

يوسف الجناينى

عندما فتحت عيني، لم أتذكر شيئًا.. دائمًا بعد أن أنتهي لا أتذكر شيئًا. انعكاس ما، حدث على الوجوه حولي، هو ما ينبئني تقريبيًا بما قيل عبر فمي في الجلسة. أنظر إلى الوجوه المتجهمة، نشيج بكاء النسوة المتشحات بالسواد حولي؛ أمور أخبرتني بأن ما حدث الآن لم يكن مبهجًا.

سعلت بقوة وطلبت شربة ماء، فأسرع سمير يناولني كوب ماء مثلج كان أمامه. حافظت على وضعي جالسًا لفترة حتى أستعيد توازني. لاحظت علامات الارتباك على وجه سمير؛ لشاب صغير لم يعتد بعد على تلك الأجواء بشكل كامل؛ وربما هو مشهد الأشخاص المجتمعين حولنا . رجال ونساء . في تلك الحجرة الضيقة، بملابسهم السوداء، وأصوات عويل النساء؛ قد أعادت إلى عقله المنهك ذكريات حزينة.

مال سمير على أذني هامسًا:

. أننصرف الآن؟

في صوته لهفة، تشي بأن المغادرة السريعة تمثل له رغبة حارقة. نظرت إليه، ثم نظرت حولي أبحث عن الرجل الذي استخدمني، فوجدته يقترب مني متجهمًا مشدوهًا، ربما بفعل ما صدر عني أثناء الجلسة.

لما صار أمامي تمامًا، سألته بصوت واهن:

. هل حصلتم على المعلومات التي كنتم تبغونها؟

تضاعف الارتباك المرسوم في عينيه، زاغت نظراته قليلاً إلى الفراغ، قبل أن يقول:

. بقي فقط أن نتأكد مما سمعناه.

ابتسمت قائلاً:

. هذا ليس دوري.. لقد أديت ما هو مطلوب مني.

هز الرجل رأسه مرددًا:

. بالطبع.. بالطبع..

أخرج من جيبه رزمة نقود دسها في يدي، راسمًا على وجهه ابتسامة شكر غير صادقة..

أشرت إلى سمير، فهرع يساعدني على النهوض، فلم أكن قد استعدت اتزاني كاملاً بعد. تقدمنا الرجل إلى باب الحجرة المغلق، فتحه وانطلق يعبر صالة الشقة إلى حيث بابها، أتبعه

متكئًا على كتف سمير. قبل أن أدركه عند باب الشقة، استوقفتني تلك العجوز الطاعنة الجالسة على أريكة في الصالة..

. هل منحتهم ما يريدون؟

قلت لها بابتسامة رقيقة:

. أعتقد هذا.

تغلظت ملامح وجهها وهي تقول:

. ما تفعله هذا سيلقي بك إلى جهنم.. النار هي مصيرك.

اختفت ابتسامتي إثر هجومها؛ ارتبك الرجل لما لاحظ نظراتي الحادة إلى من خمنت أنها جدته، فقد أخبرني سابقًا أن أم المتوفي الذي جئت لأحضر روحه لم تزل على قيد الحياة. ربما في ظرف مغاير كنت استطعت بسهولة أن أتغاضى عما قالته، ربما اعتبرته تخاريف امرأة عجوز. ولكن العقل بعد جلسة تحضير الأرواح تبقى أبوابه مفتوحة لفترة، لا حمل لي على الكتمان، أو كبت الانفعالات. لذا قلت:

. طالما أنكم تدركون هذا.. لماذا إذًا لجأتم إليَّ؟

لم أتوقف عند هذا الحد، وإنما أضفت بلهجة أكثر حدة:

. أم أن سعيكم وراء الأموال التي تعتقدون أن المرحوم كان يخبئها، أنساكم الحلال والحرام؟

فتحت فمها لتقول شيئا ما. قاطعتها بضحكة ساخرة..

. يا حاجة، عندما يتحصل أحفادك على الأموال، لا تأكلي منها.. حتى لا تكون النار مصيرك.. فهي أموال أتت من فعل حرام، كما تقولين.

***

وضع النادل أطباق الطعام على الطاولة أمامنا، ثم انطلق يسعى مسرعًا بين الموائد المتقاربة. بدأت آكل بحماس، قبل أن ألاحظ شرود سمير..

. ما بك؟

ارتسم الحزن الذي ما اعتدت أن أرى غيره على قسمات ذلك الوجه الصغير، وقال:

. إنها جلسة الليلة تلك.. لقد كان الأمر مفزعًا.

قلت له:

. المفروض ألا تخاف من الأرواح.

هز رأسه نفيًا..

. أنا لا أقصد أن الروح في حد ذاتها كانت مخيفة.. ولكن الكلام الذي قالته.. لقد تكلمت بأشياء كانت تعتبر أسرارًا لدى الكثيرين من الموجودين.. لقد عبثت بأكثر من جرح،

وعرتهم أمام بعضهم.. تفوهت بأشياء ما كان صاحبها ليقولها في حياته.

صمت منتظرًا تعليقًا مني، فقلت:

. أغلب الأرواح التي يتم تحضيرها في وجود شخص من أقاربها تفعل ذلك.. خاصة في التحضير بطريقة الوسيط، حيث تتاح للروح الفرصة للحديث بحرية أكبر.

قال:

. ولكن لماذا؟ لماذا تعمد الروح إلى إفساد علاقات من حولها ببعض؟ بل ولماذا تعمل على الإساءة لسيرة صاحبها المتوفي؟

تركت الأكل وانتبهت له:

. ماذا تريد أن تقول؟

بدا مرتبكًا من طريقتي المباشرة، وتردد لوهلة قبل أن يقول:

. لقد قرأت رأيًا لبعض رجال الدين يقولون إن ما يتم تحضيره إنما هو الشيطان قرين المتوفي، الذي يتصل بالبشر منتحلاً شخصية المتوفي، ليعبث بهم ويفقدهم الإيمان.

في كلماته رائحة إهانة طالتني. بذلت جهدًا لأحافظ على هدوئي، قلت له:

. اسمع يا سمير.. أنا لم أسع لأن أصبح وسيطًا روحيًا.. أنا مجرد شخص عادي تحدث له أشياء غير عادية.. هناك موهبة ما بداخلي منحني الله إياها، تجعلني أتصل بقوى غريبة في هذا الكون. وسواء كانت تلك القوى أرواحًا هائمة، أو شياطين، فهذا لا يحدث معي فارقًا. وأنت تعلم أن موهبتي أكبر من مجرد الوساطة الروحية.

هز رأسه متفهمًا، فتابعت مبتسمًا:

. ولكنني سعيد بكلامك. أنا أريدك أن تقتنع بهذا الكلام، فأنت مازلت صغيرًا، وتحضير الأرواح ليس رياضة لتتعلمها.

تعمدت أن أصمت لثانية قبل أن أضيف:

.كما أنه لن يعوض خسارتك.

أطرق رأسه وتضاعف الحزن المرسوم على وجهه..

اللعنة على (دريك أوكورا).. ذلك الوسيط الروحاني الإنجليزي الذي أدخل في أذهان العالم أن أي شخص يمكنه أن يتصل بالأرواح، إذا ما أدى تدريبات معينة لمدة نصف ساعة يوميًا! هذا الرجل يعلِّم الناس تحضير الأرواح، وكأنه يعلمهم الطهو.

يوم جاء سمير إلى شقتي للمرة الأولى؛ شاب صغير هو لم يكمل بعد عامه العشرين، مثقف حقيقي، من ذلك الجيل الذي

عرف كيف يستفيد بحق من معجزة العصر المسماة بالإنترنت، يدرس الهندسة في جامعة القاهرة. جاري كان طوال عمره، يسكن في بناية تبعد عن بنايتي بأقل من عشرين مترًا، ولكن بالطبع لم أكن أعرفه؛ فلا أنا ولا هو كنا من معتادي الاختلاط بالجيران. حاله كان يثير الشفقة، هشاشته النفسية كانت بادية في كلماته وحركاته، وحتى في طريقة ملبسه. جاءني يقول إنه سمع ما يقال عني في الشارع من أنني وسيط روحي. أراد بكل بساطة أن يتعلم تحضير الأرواح. ظن أن هذه هي الطريقة الوحيدة لكي تعيد له من تركوه ورحلوا. حاولت أن أفهمه أن الأمر أولاً وأخيرًا موهبة، ولكنه لم يقتنع. كان مشبعًا بكلمات ذلك النصاب البريطاني (أوكورا) الذي كان قد قرأ الكثير عنه، وعن تدريباته، التي ادعى أنها قادرة على فتح مناطق في عقل أي إنسان ومداركه، لتمكنه من التقاط رسائل الأرواح، والتواصل معها.

سمير لم يزل يحيا بعيدًا، في ذلك اليوم الذي فقد فيه والديه وشقيقته الصغرى في حادث سيارة. رحلوا وتركوه يواجه وحدة مريرة، وشعورًا قاتلًا بالذنب لأنه لم يمت معهم. يومها تشاجر مع والده، وقرر بعناد ألا يذهب معهم إلى حفل الزفاف العائلي، الذي انقلبت بهم السيارة الميكروباص وهم في طريقهم إليه. سمير يحيا من يومها في حالة تمزق نفسي حادة. عرضت كثيرًا عليه أن يحصل على مساعدة طبيب نفسي،

ولكنه رفض. كان عنيدًا كما يليق بشاب في عمره. ربما لو كان هو من قتل أسرته لما كان واجه أزمة ضمير كالتي يواجهها. يعتقد أن عليه التواصل مع أرواحهم، ربما يسمع منهم كلمة تعيد الصفاء إلى حياته. ربما يعتذر لهم، أو حتى يجد طريقة للعيش معهم. عرضت عليه مرة أن أستحضر له أرواحهم بنفسي، ولكنه رفض. يعتقد أنها مهمته وحده.

حتى الآن، لا أعرف على وجه الدقة لماذا أطعته؛ ربما لسعادة ولدت بداخلي أن أجد أخيرًا من أتحدث معه ببساطة عن تلك الحياة الخاصة الشاذة التي أعيشها، والتي كانت سببًا في طلاقي مرتين. ربما شعرت أن رفضي له قد لا يكون في مصلحته. أكثر من مرة فكرت في أن هذا الشاب المثقف سيأتي عليه يوم يتأمل فيه بعقل واع تلك الأفكار الغريبة التي تملأ رأسه.. ربما عندما يجد الحبيبة التي تقنعه بأن الحياة لم تخلق لكي يعيشها مع أشباح من رحلوا. عندها سيتوقف عن الجنون، ويعيش حياة طبيعية.

من هنا، كانت سعادتي الليلة وهو يحدثني عن مشاعره السلبية وشكوكه تجاه تحضير الأرواح. شعرت أنها بداية مبشرة لما كنت أتمناه له. صحيح أنني اعتدت عليه رفيقًا دائمًا لي، ولكن الآن، وأنا أرى سعادتي بتغير موقفه، أشعر بأنني لست أنانيًا إلى الحد الذي كنت أظنه، فيدفعني هذا نحو المزيد من

التشجيع للشاب الصغير على ترك تلك المخططات المدمرة التي كان قد وضعها لحياته.. علَّني أثبت بهذا لتلك العجوز أن جهنم ليست مصيري المحتوم..

***

أدخل إلى بيتي وحيدًا. أعد لنفسي كوبًا من الشاي أرشفه وحيدًا. أشاهد التليفزيون وحدي..

هكذا أنا.. يوسف الجنايني.. لا يمكن إلا أن أكون وحيدًا.

لدي تلك الموهبة الخاصة، التي أجبرتني على استبدال الأهل والأصحاب بالوحدة.

هل تعرف عندما تشعر فجأة بتوتر وقلق وخوف من شيء ما، لا تعرفه؟ هل تعرف تلك القشعريرة التي تصيب عامودك الفقري فجأة، دونما أي سبب واضح، عندما تكون وحدك؟ هل تعرف عندما تكون في مكان مغلق، وتشعر أنك تريد أن تهرب منه بأسرع ما يمكن؟

لهذا تفسير علمي يقول إن هذا الخوف غير المبرر يكون مصدره الأذن. العلماء يتحدثون عما يدعى (الترددات تحت الصوتية)، وهي ذبذبات للأصوات التي تعجز الأذن البشرية عن سماعها بوضوح, فهي تقل عن20 هيرتز, وهو الحد

الأدنى للصوت الذي تستطيع الأذن سماعه بشكل واع. يقولون إن هذه الترددات غير المألوفة للأذن البشرية يصعب على العقل الواعي توقع مصدرها أو تقدير المسافة بين الأذن وبين مصدر الصوت، فتؤدي إلى ذلك الشعور المبهم والمفاجئ بالخوف، لأن النفس تتوهم المسافة بين مصدر الصوت والأذن أقرب بكثير مما هي في الحقيقة، ولكن العين لا ترسل للعقل أية معلومات عن مصدر هذا الصوت القريب. بل يذهب العلماء أنه في بعض الحالات يمكن أن يؤدي تعرض الإنسان لترددات تحت صوتية لمشاهدته خيالات وأشباح. يقولون إن هذه الظاهرة هي المسؤولة عن كثير من مشاعر الخوف الذي يتملكنا في الأماكن المغلقة. وربما تكون هي المسؤل الحقيقي عن حالات الكلستروفوبيا، أو كما يترجمها أطباء النفس العرب: الخوف المرضي من الأماكن المغلقة.

ولكن حتى أولئك الذين يتحدثون بثقة ودراية عن الذبذبات تحت الصوتية لم يفسروا سبب انتشارها في أماكن معينة.

هم يفسرون الرابط بين الترددات تحت الصوتية ورؤية الأشباح بأن الترددات هي التي تسبب تلك الرؤى..

ولكنهم مخطئون..

الأمر معكوس تمامًا..

فالأشباح هي التي تطلق تلك الترددات..

وهذه هي موهبتي الخاصة..

قرأت مرة أنهم حاولوا في فرنسا حل لغز جريمة غامضة عن طريق صنع جهاز يمكنه التقاط أصوات الأرواح.. أتدرون أمرًا.. أنا هو هذا الجهاز.. ولكنني صناعة ربانية..

أنا أمتلك أذنًا قادرة على التقاط الذبذبات تحت الصوتية بدقة، أستطيع تحديد مصدرها وبُعد مسافتها بدقة.. وأحيانًا أتمكن من تفسيرها والتقاط ما تحمله من حديث أو أصوات. قال لي العلماء الذين درسوا حالتي في فرنسا . حيث مكثت لعامين كفأر تجارب . إن هذه المقدرة موجودة عند الأفيال والحيتان، وأن امتلاكي لها يعد معجزة..

ولكن أحدًا لم يفسر لي علاقتها بالأشباح. فتلك الذبذبات ألتقطها بقوة في الأماكن المسكونة، تلك الأماكن التي يشعر فيها الناس بحالة من الخوف المبهم، تلك الذبذبات كما عرفت لطول الخبرات والتجارب، ما هي إلا صوت الشبح. رسائله التي ينشرها في الهواء. أو ربما صراخه في الموجودين أن يذهبوا ويتركوه لحاله..

قالوا لي في فرنسا إن هذه الموهبة تؤهلني للعمل كوسيط روحي. وهو نفس الكلام الذي قالوه لي في مصر في جمعية محضري الأرواح. الجمعية التي لجأت إليها لكي أفهم سر موهبتي تلك؛ هم من حصلوا لي على الدعوة الخاصة من تلك الجامعة الفرنسية . التي تضم قسمًا خاصة لد "ماورائيات" . لدراسة حالتي بالتفصيل. عدت إلى مصر وقد قررت أن أترك نفسي للجمعية هنا. علموني كيف أوجه موهبتي للاتصال بالأرواح، وبات لي عمل ليلي يدر عليَّ بعض الأموال.

ولكن بقت موهبتي الأساسية هي قدرتي على تحديد أماكن وجود الأشباح، والتواصل معهم، وهي القدرة التي لا يتمتع بها من أعضاء الجمعية سواي.

لذا لم أندهش عندما اتصل بي رئيسها في تلك الليلة، ليخبرني عن مشكلة من هذا النوع يريدني أن أفحصها. فقط الأمر سيتطلب مني القيام برحلة خاطفة إلى الإسكندرية.

***

الأسانسير

لا أعرف كيف تطاير الرذاذ الذي أحدثه ضرب الأمواج الثائرة للحواجز الخرسانية عبر كل تلك المسافة، ليسقط فوق وجهي على الرصيف المقابل للكورنيش. الخطأ بالتأكيد ليس خطأ الأمواج التي تتعالى قريبًا من الشارع في تلك البقعة على كورنيش الميناء الشرقي، ولا خطأ الرياح الشديدة في تلك الأمسية الشتوية الخالية من الأمطار، ولا خطأ إدارة الكافيتيريا التي قررت أن تصف موائدها على الرصيف في ذلك البرد القارس، بعد أن امتلأ داخل الكافيتيريا عن آخره بمن قرروا مغادرة منازلهم في ليلة الجمعة تلك.. ولكنه خطأ ذلك المدعو أحمد فرغلي، الذي اقترح أن نجلس على تلك الكافيتيريا تحديدًا في مواجهة الكورنيش..

. آسف جدًا على إتعابك معي بهذا الشكل.. أنا فقط أردت أن أتحدث معك أولاً قبل أن تذهب لتفقد المكان.

هززت رأسي قائلاً:

. لا عليك يا أستاذ أحمد..

رشف من قدح القهوة أمامه وبدأ يحكي..

. تلك البناية العتيقة، التي تعود إلى منتصف القرن الماضي تقريبًا، كانت ميراثنا أنا وأخوتي وأبناء عمومتي. بالطبع هو ميراث صوري، فنحن لا يعود علينا من ورائها أي ربح، فإيجار الشقة بها لا يتعدى الجنيهات الأربعة. وبما أني ورثت عن والدي ورشة ترزي في شقة من شقق البناية، صرت أنا المكلف من قبل الورثة بحمل مسؤولية البناية، وهي مسؤلية ليست بثقيلة، لولا ذلك الأمر الذي شرفتنا بالمجيء إلى الإسكندرية من أجله..

صمت قليلاً بعد أن أنهى إلقاء مقدمته تلك. ربما توقع مني أن أعلق، ولكنني لم أفعل، فواصل:

. الأمر يحدث منذ زمن بعيد.. منذ السبعينات.. البداية كانت بحادث انتحار ذلك الرجل.. رجل أعمال صغير كان.. قدم إلى البناية من أجل موعد عمل مع شركة دعاية، كان مقرها في البناية وقتها.. ولكنه بدلاً من أن يلحق بموعده، ألقى بنفسه من فوق سطح البناية. بعدها حدثت أربعة حوادث انتحار مشابهة على فترات زمنية متباعدة، لأشخاص كلهم كانوا من زوار البناية وليسوا من ساكنيها. تزامنت هذه الحوادث مع تلك الظاهرة الغريبة.

صمت هذه المرة مترددًا، فأردت أن أشجعه على المضي في حكايته..

. أية ظاهرة؟

دونما أن يتخلص من ارتباكه، ومستشعرًا شيئًا من الحرج قال:

. أنا لم أشاهدها بعيني.. ولكن هناك أقاويل تفيد برؤية فتاة ما في الأسانسير.. يعتقد سكان البناية أنها.. شبح.

قلت له:

. وأنت كواحد من المترددين الدائمين على البناية؛ ألم ترها أبدًا؟

هز رأسه نفيًا:

. ولا مرة.. ولكن هناك تلك الحالة الغريبة التي تصيب من يركب الأسانسير.

عندما صمت تابعت كلامه:

. أتشعر بالاختناق؟ نفسك يتسارع.. دقات قلبك تزيد.. لسعة صقيع أسفل ظهرك.. دوار وغثيان أحيانًا.. تتعرق، وتشعر بخوف شديد لا أساس له؟

نظر إلى وجهي بشيء من الانبهار، قبل أن يقول دونما أن تغادره دهشته:

. هذا صحيح تمامًا.. كيف عرفت؟

ابتسمت وأنا أجيب:

. لو ذكرت هذه الأعراض لأي طبيب نفسي لقال لك إنها أعراض نوبة هلع ناتجة عن خوف مرضي من الأماكن المغلقة (كلستروفوبيا). ربما خبير في الصوتيات، يمكن أن يؤكد لك أنك تعرضت لموجة من الترددات تحت الصوتية. ولكن هذه الأعراض تحديدًا تعني بالنسبة لشخص يعمل في مجالي أن هذا الأسانسير مسكون.

امتدت يدي لأول مرة إلى كوب العصير أمامي. رشفت منه وأنا أتأمل تعبير الهلع على وجهه، قبل أن أضيف:

. هذا الهلع ببساطة يعني أن آذانكم تلتقط صوت الشبح، ولكن عقولكم القاصرة لا تفهمه.

***

الباب الحديدي الخارجي للأسانسير كان مغلقا بجنزير ضخم. صاحب البناية أخبرني إنهم اضطروا لغلقه بناء على طلب قاطني البناية، الذين بات يمثل لهم الأسانسير كابوسًا جاثمًا على صدورهم..

عبر الباب الخارجي، يظهر الأسانسير المظلم، ككتلة من السواد الرابض بلا حراك..

. افتحه.

هكذا أمرت صاحب البناية.. فنظر إلي متوجسًا:

. الآن؟!

. أجل، الآن.. فأنا يجب أن أعود إلى القاهرة الليلة.

قلتها بابتسامة رقيقة، محاولة تهوين الأمر. أطرق قليلاً، مبديًا ترددًا، قبل أن يطلق زفرة ويقول:

. انتظر.. سأحضر البواب، فمفتاح القفل معه.

سار نحو ركن ما من أركان المدخل.. تبعته بنظري، فبدا لي ذلك الباب الخشبي الذي لم أنتبه له من قبل. طرقه الرجل، ففتح كاشفًا عن جسد نحيل لشاب في بدلة رياضية متسخة. ارتسم وجه البواب بالدهشة، عندما فوجئ بزيارة صاحب البناية، الذي لم يدخر بدوره جهدًا لأحباله الصوتية وهو يصرخ في البواب لتركه باب البناية مفتوحًا على مصراعيه، في حين أغلق على نفسه باب حجرته. في النهاية، وبعد أن شحب لون البواب حتى قارب البياض، أمره بأن يحضر مفتاح الأسانسير. توقعت أن يهرع الرجل لتلبية الأمر بعد وصلة التقريع تلك.. ولكن الفزع، الذي ارتسم على وجهه، جعله يهتف:

. لماذا؟

. اخرس، واسمع الكلام..

ذهب البواب لتلبية الأمر على غير اقتناع، في حين عاد أحمد فرغلي ليقف معي وعلى وجهه ابتسامة اعتذار، فلوحت بيدي بمعنى: عادي.. هذا يحدث.

جاء البواب مرتبكًا، مد يده بالمفتاح لصاحب البناية. الأخير صاح به:

. افتح الأسانسير.

وجه إليه البواب نظرة توقعت أن يتبعها بقول:

. ولماذا لا تفعل أنت أيها الجبان.

والواقع أن أحمد فرغلي هذا كان بالفعل في قمة الخوف، كان يفرغ خوفه في البواب المسكين كحالة من التعويض..

مددت أنا يدي ألتقط المفتاح من يد البواب. تقدمت نحو الأسانسير، فتراجع الاثنان للخلف!

فتحت القفل وأزحت الجنزير. مددت يدي وفتحت الباب الحديدي الخارجي. اقتربت من جسد الأسانسير الهامد قاصدًا دفع بابه الخشبي. عندها أتيحت لي فرصة التدقيق في ذلك الظلام داخله، والذي لم تفلح إضاءة المدخل الباهتة في تبديد أي جزء منه.

في قلب الأسانسير.. هناك في العمق، قرب حائطه المواجه. كان الظلام أكثر عتمة.. ظلام له أبعاد في الفراغ.. أبعاد تأخذ شكلاً شبحيًا لجسد بشري منتصب..

تراجعت خطوتين للوراء، حتى وقفت بجوار صاحب البناية..

. أتراها؟

كاد أن يخر مكانه لسؤالي هذا..

. أتراها أنت؟!

أشرت إلى ذلك الظل المعتم الذي بدا لي كشخص واقف في الظلام، لا ينتظر سوى إشعال الضوء لتبين ملامحه..

. هذا الظل.. أتراه؟ إنه يأخذ شكلاً بشريًا واضحًا.

هذه المرة كان صوته مرتجفًا:

. أنا لا أرى ما تشير إليه.

لم أهتم لهذا، فقد كنت معتادًا على تلك المداعبات من بعض الأشباح، آمل فقط ألا يظنني نصابًا بعد هذا العرض..

. كيف يمكن أن أضيء هذا الشيء؟

قلتها مشيرًا إلى الأسانسير.. فبادر البواب بإجابتي..

. هناك زر إضاءة بداخله.. في اليسار بجوار لوحة الأزرار.

زفرت واستعذت بالله من الشيطان، وتقدمت.. دفعت ضلفتي باب الأسانسير، فصرت أمام ذلك الظل مباشرة، بلا أي حواجز. لم أحرك عيني من عليه، محاولاً استكشاف أبعاده وملامحه. برغم قربي الشديد منه، كان لم يزل مجرد ظل أسود. سرحت يدي اليسرى في جدار الأسانسير تبحث عن مفتاح الإضاءة.. وجدته أخيرًا، فضغطته.

عندما غمر الضوء الأسانسير، كان خاليًا تمامًا. نوعًا ما كنت واثقًا من حدوث هذا..

خطوت إلى الداخل.. توقفت في قلبه.. أبعدت يدي التي تسند الباب الداخلي فانغلق خلفي.. بات المكان ضيقًا خانقًا كالقبر.. مكان مثالي لتجربة نوبة هلع قوية من الكلستروفوبيا.

عندها شعرت بها.. تلك الذبذبات.. توترت، تسارعت ضربات قلبي وزاد معدل تنفسي.. ولكنني لم أهلع.. فعقلي يجيد استقبال تلك الذبذبات. ركز فقط.. أقاوم غثيان ورغبة في القيء. هناك تلك الصرخة.. أعتقد أنها صرخة.. صرخة أنثوية. العرق يغمرني.. يدي اليسرى ترتجف بجنون.. بالفعل هي صرخة أنثوية.. قوية.. ولكن صوتها بعيد جدًا، أسمعه بالكاد، حتى لأظن أن إدراكي يخدعني ويجعلني أتوهمها.. ركز أكثر.. المزيد من العرق يغرق ياقة القميص.. حالة من التخاذل

تصيب أطرافي.. أفرد ذراعي الأيمن لأستند إلى جدار الأسانسير.. أقاوم السقوط. صيحة تأتيني من الخارج:

. هل أنت بخير؟

أرفع سبابتي أمام شفتي بمعنى: اخرس..

أركز أكثر.. أجل.. هي صرخة بكل تأكيد.. شعر مؤخرة رأسي ينتصب.. فجأة أسمع هذا بوضوح.. صوت أنثوي بالفعل.. متحشرج قليلاً، ولكن نبراته واضحة:

. ستة.

عندها أدفع الباب الداخلي وأخرج مندفعًا، وكأنني أهرب من الموت ذاته. أتوقف لألتقط انفاسي أمام زوجين من العيون المتسعة هلعًا..

. هذه الروح قوية وغاضبة.. غاضبة جدًا.

قلتها، ثم أفرغت ما في معدتي على الدرجات الرخامية اللامعة. بعدها بدأت أتخفف من ذلك الضغط الرهيب الذي كاد يزهق روحي بالداخل. لم أشعر بهذا من قبل.. تلك القوة الروحية الساحقة قادرة على الفتك بي..

. آسف.. آسف جدًا.

رغم الاشمئزاز المرسوم في أعينهما، هزا رأسيهما متقبلين أسفي. البواب عاد إلى حجرته جالبًا جردل ماء، ومساحة، وبدأ يزيل آثار فعلتي. صاحب البناية سألني:

. كنت تقول إنها روح غاضبة.

هززت رأسي..

. بالفعل. كما أنها قادرة على الإيذاء.. هذا الشبح ليس مسالمًا بالمرة.

بالطبع كان لكلماتي وقع مخيف عليه..

. ألا يمكن أن تخرج لنا؟

قالها الرجل بصوت مرتعش، فلاحظت نظراته للأسانسير المضاء، والذي لم يزل بابه الخارجي مفتوحًا..

اعتدلت وقد استعدت الكثير من هدوئي..

. هل سبق لها أن شوهدت خارج الأسانسير؟

هز البواب رأسه نفيًا، في حين قال صاحب البناية:

. المشكلة أن سكان هذه البناية كلهم من ذوي المراكز المحترمة.. هناك محامون، وضباط جيش، وأطباء.. هؤلاء لن يتحدث أحد منهم في شيء كهذا.. صدقني لو كان الشبح ينام

بجوارهم في الفراش، فلن يتكلم منهم أحد خشية التأثير على مركزه بالسلب.

سألته مستوثقًا:

. لا شهود عيان إذن؟

بعد جولة تردد قال:

. ربما هناك من يمكن أن يفيدك. أستاذة هاجر في الطابق السادس. تحدثت مرة عن رؤيتها للشبح، قبل أن تعود لتنكر الأمر. ربما يمكننا إقناعها بالتحدث.

لم أعلق على كلامه؛ فضلت أن آخذ فرصة للتفكير. الطابق السادس؟ ستة؟ الرقم يتكرر مرتين على أذني في فترة وجيزة... هل...؟ أعملت عقلي في الأمر وأنا أقوم بإعادة الأسانسير كما كان؛ أطفأت نوره، وأعدت غلق الباب الخارجي بالجنزير. عندما انتهيت، أعدت بصري إلى الفراغ المظلم بداخله، فوجدت ذلك الظل موجودًا كما كان. بحركة خاطفة أخرجت من جيبي ميدالية مفاتيحي التي تنتهي بكشاف يطلق بقعة ضوء زرقاء صغيرة. بسرعة قمت بتسليطها على الموضع الافتراضي للوجه من ذلك الظل.. فتكشفت أمامي مجرد بقعة زرقاء من جدار الأسانسير الخالي. أطفأت الكشاف، ولكن في عقلي دق جرس إنذار ما؛ شيء هام مر سريعًا على بصري في تلك الثانية.. أعدت تسليط الضوء على ذات البقعة، فرأيته.

وسط بقعة الضوء الباهت، ظهر لي حدود ذلك الخدش على جدار الأسانسير.. كان خدشًا على شكل رقم ستة (6)..

أعدت مفتاح القفل للبواب . الذي فغر فاه بفعل ذلك العرض الأخير . وأنا أقول:

. يجب أن نعرف ماذا تريد تلك الروح.. ولكي نعرف يجب أن أحضرها لأتحدث معها.. ولكي يحدث هذا، يجب أن أعرف من هي.

ثم نقلت بصري بينهما وأنا أقول:

. أتعرفون من هي؟

قال البواب:

. ربما.

نظرت إليه مستفهمًا، فأجابني صاحب البناية بدلاً منه:

. لقد عثر في السبعينات على جثة فتاة مقتولة بالسكين داخل الأسانسير.

قلت مسرعًا:

. إنها هي بالتأكيد.

ثم أضفت بعد فترة وقد تذكرت جانبًا من حديثه في الكافيتيريا:

. ألم تقل إن الحوادث الغريبة بدأت في السبعينات؟

هز رأسه قائلاً:

. أجل، بدأت بعد اكتشاف تلك الجثة بقليل.

تأكدت أكثر من أننا قد وجدنا ضالتنا..

. ولكن ماذا عن حالات الانتحار؟

كان هذا السؤال من صاحب البناية، فأجبته:

. ربما تقمص الشبح هؤلاء الضحايا ودفعهم لهذا.

عاد يقول:

. ولماذا تفعل شيئًا كهذا؟

قلت:

. كما أخبرتك، هذه الروح من النوع المؤذي. ربما هي تنتقم من البشر. لن نفهم بدقة.. المهم أنها قادرة على هذا.

هز رأسه متفهمًا، فانتقلت إلى نقطة أخرى:

. هل من معلومات عن قتيلة السبعينات تلك؟

قال البواب بحماس:

. لقد كان والدي . رحمه الله . بواب تلك البناية وقتها، وهو من اكتشف الجثة. وجدها عند عودته من صلاة الفجر، وقد نشرت الجرائد اسمه مع خبر العثور على القتيلة.

نطق حروف جملته الأخيرة بكثير من الزهو، ثم أضاف عليها:

. عندي في حجرتي نسخة من جريدة قديمة منشور بها هذا الخبر.. أتريد رؤيتها؟

***

الطابق السادس

لو تكلمت فلن يصدقوني..

عجيب هو أمر هؤلاء البشر.. ما من أحد من ساكني البناية إلا ويعلم عن الشبح، بل ويؤمن بوجوده إيمانًا تامًا. كل منهم شارك في الإيعاز لصاحب البناية . بشكل منفرد . بأن يغلق الأسانسير، ولكن أمام بعضهم البعض، يرفضون الأمر. يسمونه بأسماء على غير حقيقته. يقولون عنه: أوهام.. جنون.. حوادث قدرية.. صدفة..

ولو تجرأ أحد وقال لجاره إنه شاهد الشبح بالفعل، فسيكون مصيره السخرية المريرة، وربما يتهم بالجهل وترويج الخرافات. تمامًا كما حدث مع أمي، التي ندمت أشد الندم على كونها الوحيدة من قاطني البناية التي قالت صراحة، ووسط جمع من الجيران إنها شاهدت الشبح أكثر من مرة..

لذا، فهي الآن تنكر.. تنكر أنها تراه.. وتنكر عليّ أن أتحدث عنه. يوميًا تذكرني بهذا، كوصية من وصايا الأمهات

التقليدية: اغسل أسنانك قبل النوم.. رتب فراشك بعد الاستيقاظ.. لا تخبر أحدًا أنك ترى شبحًا!! أنا وأمي ندرك حقيقة هامة.. ربما يعلمها غيرنا من الجيران، ويتجاهلها كالمعتاد. حقيقة أن الأسانسير يبيت ليلته في طابقنا. بالطبع لن نسأل كيف يحدث هذا، ولكنه يحدث. بعد منتصف الليل بخمس دقائق يوميًا، يصعد الأسانسير إلى الطابق السادس، ويقبع به حتى قبيل الفجر..

أمي تعرف هذا.. أمي تراها كثيرًا.. أنا أيضًا أراها كثيرًا. ولكن أمي تعلم أنها لو تكلمت فسيكذبوها في ظاهر قولهم، وهي المرأة الوقورة، مدرسة الفيزياء، مربية الأجيال.. فماذا عني أنا الشاب المراهق؟!

***

ذلك اليوم، كنت أركض في الشوارع إلى البيت. في ذهني وصية دائمًا عليَّ حملها حتى مماتي ربما، ألا أتأخر عن البيت حتى منتصف الليل. لا أعرف، ولا حتى أمي تعرف، لماذا منتصف الليل تحديدًا؛ ولكن ربما هي تفترض أن الأشياء الشريرة ربما تحدث بدءً من منتصف الليل.

الليلة، تأخر المدرس في القدوم، وأصر على أن يطيل زمن الدرس الخصوصي ليعوضنا عن الوقت الضائع. لم أجد الجرأة لمغادرة الدرس قبل نهايته فأغضب المدرس. انتظرت صابرًا

حتى انتهى، ودون أن أتلفت حتى حولي، لممت أشيائي وانطلقت. ولكن في النهاية لم يفلح كل ما بذلته من جهد، وصلت إلى البناية بعد انتصاف الليل بخمس دقائق تقريبًا. الآن سأعرف إن كانت أمي محقة في خوفها من انتصاف الليل.

اقتحمت البوابة الكبيرة، قطعت المدخل نحو الدرجات الصاعدة، التي تمتد بجوار الأسانسير المظلم المغلق بجنزير ضخم..

قبل أن أبلغ درجات السلم، سطع الضوء داخل الأسانسير.. لم أكن قد شاهدت شيئًا كهذا من قبل. بداخله كانت هي موجودة. المصباح الوحيد، الذي يضيء الأسانسير بذلك الضوء الأصفر، يقع فوق رأسها تمامًا، فيلقي على وجهها ظلال شعرها الكثيف المشوش، فتختفي ملامحها. برغم هذا أشعر بنظراتها الميتة تخترقني..

انطلقت أقطع الدرجات قفزًا نحو الطابق السادس والأخير حيث أسكن. عندما بلغت الطابق الأول، وجدت الأسانسير هناك! كيف حدث هذا؟! لست أدري، فالأسانسير إذا صعد، فإنه كان ليمر بجواري في بئر السلم، حيث مجراه المكشوف الذي لا يغطيه سوى شبكة حديدية مفرغة.

الوقت لم يكن مناسبًا للبحث عن أجوبة.. قررت أن أبلغ بيتي أولاً، ثم أفكر فيما رأيته.

عدت أقفز الدرجات، كل ثلاث درجات معًا. في كل طابق أبلغه، كان الأسانسير موجودًا. حتى إذا ما بلغت طابقنا، انطلقت من أمام باب الأسانسير مباشرة قاصدًا شقتي.. فتحت الباب، ودخلت بهدوء عازمًا على ألا أخبر أمي بما رأيت..

لما استقر جسدي في دفء البيت، هدأت أعصابي وباتت مهيأة لاعتبار ما رأيته منذ قليل وكأنه لم يكن. وضعت كشكول الدرس على الطاولة المجاورة للباب، والتفت أنظر من العين السحرية لأرى ما يحدث الآن.

وضعت عين على الدائرة الزجاجية الصغيرة، وأغمضت الأخرى. لحظتها امتلأت عيني بوجه الشبح واضحًا أمام باب شقتنا، وكأنها تنظر إليَّ عبر العين السحرية من الناحية المقابلة.

افلتت مني صرخة، تراجعت بظهري مسرعًا، فاختل توازني وسقطت على مؤخرتي. ظهرت أمي أمامي.. على وجهها قلق، وقد هبت قادمة على صوت صرختي. بنظرة إلى قسمات وجهي، تحول قلقها إلى فزع..

. ماذا حدث؟

لم أنطق، كنت ارتجف وكفى. مددت يدي أشير إلى باب الشقة. التفتت تتأمله، ثم أعادت نظراتها إلى وجهي، وكأنما تنتظر مني توضيحًا. قلت:

. العين السحرية.

تقدمت بخطوات مترددة. تغالب خوفها.. هذا واضح. قربت رأسها.. وضعت عينها على العين السحرية. فجاة ارتدت تمامًا مثلما فعلت. ألقت بجسدها فوق جسدي. احتضنتني وهي تشهق، وتتعوذ من الشيطان. على هذا الوضع بقينا إلى وقت لا يعلمه إلا الله.

***

اقتربت من باب الصالون المفتوح، بزاوية تجعلني غير مكشوف للجالسين بالداخل. هناك كانت أمي تجالس رجلين؛ أحدهما هو أحمد فرغلي صاحب البناية، والآخر رجل لم أره من قبل. أعرف أن التجسس خطيئة، ولكن فضول المراهقين أقوى من أية قواعد. مما التقطته من الحوار، فهمت أن الرجل الآخر هو خبير ما في التعامل مع الأشباح، جاء يتحدث مع أمي بشأن شبح الأسانسير. لم أتمكن من رؤية ما يجري، ولكن فهمت أنه يعرض على أمي صورة منشورة في جريدة قديمة، صورة لتلك الفتاة التي قالوا إنها قتلت في الأسانسير منذ قرابة الأربعين عاما..

. مدام هاجر.. كل ما أريده منك هو أن تقرري إن كانت تلك الفتاة في الصورة، هي نفسها الشبح أم لا.. فقد أخبرني أستاذ أحمد أنك رأيتها أكثر من مرة.

الصوت كان بالتاكيد للرجل الغريب. صوت أمي بلغ أذني جافًا صارمًا..

. من قال لك إنني رأيت أي أشباح؟!

سمعت صوت الأستاذ أحمد يقول:

. مدام هاجر.. كلنا سمعناك تتحدثين عن هذا أكثر من مرة.

ردت أمي:

. وكلكم أجمعتم على أن الضغوط التي سببها مرض زوجي ثم وفاته هي التي جعلتني أتوهم هذا الأمر.

بالطبع لم يرد الأستاذ أحمد على لهجة أمي الهجومية الحادة، ولكن سمعت الرجل الآخر يقول:

. ولكنني على الأقل أصدقك.. أنا أعرف بوجود هذا الشبح.. وأحتاج لمساعدتك لكي أطرده.. فقط أريد أن أتأكد أولاً إن كانت تلك الفتاة هي الشبح أم لا.

بقى الوضع على ما هو عليه حتى نهاية الجلسة.. رفضت أمي مساعدتهما رفضًا قاطعًا، حتى تملك منهما اليأس، وقاما وهما يرددان عبارات شكر، بالتأكيد لا يعنياه..

أوصلتهما أمي حتى الباب، ثم أغلقته خلفهما وهي تخرج ثورتها بشكل سباب هامس، أثناء انطلاقتها السريعة إلى حجرة

نومها. اغتنمت تلك الفرصة وهرعت إلى الباب لأفتحه بحذر كي لا يحدث صوتًا..

كان الرجلان لم يهبطا من طابقنا بعد، عندما أدركتهما..

. ماذا تريد يا تامر؟

قالها لي الأستاذ أحمد، فأجبته:

. سأمنحكما ما جئتما من أجله.. فقط دعاني أرى الصورة.

قال الرجل الآخر بلهفة:

. هل شاهدتها أنت أيضًا؟

ضحكت باستخفاف وقلت:

. شاهدتها؟! أنا أشاهدها كل ليلة.. لقد صرت مفتونًا بمشاهدتها.

وضح عليه الاهتمام وهو يقول:

. ماذا تعني؟

اقتربت منه أكثر، وخفضت صوتي قائلاً:

. ما لا يعرفه أحد هو أنها تتجول كل ليلة في هذا الطابق.. حتى أنني أتمكن من مشاهدتها عبر العين السحرية.

بدت الدهشة على ملامحه، في حين شعرت بعدم التصديق ينطق من خلجات الأستاذ أحمد..

. أتعني أنها تغادر الأسانسير؟

هززت رأسي بالإيجاب..

.كل ليلة في هذا الطابق.

تبادل الرجلان النظرات، قبل أن يمد الرجل الغريب يده الممسكة بالجريدة مصفرة الأوراق تجاهي، وفيها كان خبر عن مقتل تلك الفتاة وصورة لها. تأملت الصورة لثوان ثم قلت:

. هل عثروا على قاتلها؟

صاح الأستاذ أحمد:

. هذا ليس من شأننا الآن.. فقط أجب على السؤال.. هل هذه الفتاة هي الشبح؟

لما بدا على وجهي الامتعاض، وجدت الرجل الغريب يقول:

. كلا يا تامر، لم يعثروا على قاتلها.. ولكنهم اشتبهوا في شاب غير مصري كان يؤجر شقة مفروشة في الطابق الثالث.. ربما أقام معها علاقة . فتلك الفتاة كانت تحترف البغاء . فاختلفوا بشكل أو بآخر.. ولكن هذا الشاب اختفى تمامًا من البلد قبل أن يستجوبه أحد، وبقى الأمر مجرد شك دون دليل.

تابع الأستاذ أحمد على كلام الرجل قائلاً لي:

. أتريد أن تعرف شيئًا آخر؟

كان ما سمعته يكفيني ويروي فضولي، بل وأكثر حتى مما تمنيت سماعه. لذا أعدت الجريدة إليه وأنا أقول:

. إنها هي بكل تأكيد.

***

تجربة

جاء سمير في الموعد المحدد..

كنت قد اتصلت به بمجرد عودتي إلى القاهرة . مع الساعات الأولى من صباح الجمعة . وطلبت منه أن يزورني مساء لحاجتي إليه..

كانت الخطة التي وضعتها هي أن أقوم بتحضير تلك الروح وأستجوبها، عازمًا على استخدام لوح الويجا في ذلك. فبعد ما رأيته في الأسانسير من مظاهر قوة ذلك الشبح، تسرب إلى قلبي بعض الخوف من حدوث مواجهة مباشرة بيني وبينها، فقررت أنه من الجنون أن أسمح لها بتقمصي إذا ما استخدمت طريقة الوسيط. وبالتأكيد لن أدعوها للتجسد. لذا، اعتقدت أن الويجا هي الطريقة الأكثر أمنًا.

كان سمير -بحكم ما علمته إياه- يعلم القدر الكافي عن استخدام لوح الويجا. أصلاً لم يكن مطلوبًا منه شيء سوى الاسترخاء ووضع إصبع معي على المؤشر، وأنا الذي سأقوم باستدعاء الروح التي بت أعرف اسمها الآن..

. لقد قررت أن أترك هذا الجنون.

بادرني بها سمير.. وبالطبع كان يقصد بالجنون حياتي وسط الأرواح..

. قرار حكيم. فقط ساعدني هذه المرة.. أنت تعرف أن الويجا تحتاج لشخصين على الأقل.

كنت أعلم مسبقًا أنه ما كان ليرفض، فسمير . برغم أي شيء . يتخذني أبًا بديلاً.. وأنا أعتبره الابن الذي لم يأت من صلبي. بالتأكيد سعدت بقوله، فهذا هو ما أردته له تمامًا، أن يترك هذا الجنون. ولكن حاجتي له زينت لي فكرة أن لا ضرر من خدمة أخيرة، بعد وعد مني أن تكون تلك هي المرة الأخيرة. جلس بجواري إلى مائدة الطعام الصغيرة التي تتوسط صالة داري الضيقة، على وجهه اعتراض مكتوم، تصنعت أنني لم أره. كنت قد وضعت لوحة الويجا هناك، بعد أن استخرجتها من مخبئها تحت الفراش؛ تلك اللوحة التي أهدوني إياها في فرنسا، نفس اللوحة التي طالما استخدموها لإجراء تجاربهم علي..

وضعت أصبعي على المؤشر، وكذا فعل سمير.. أغمضت عيني وعمدت إلى الاسترخاء التام.. يقول النصابون في هذه الأشياء أن مستخدم الويجا يجب أن ينقي الهالة المحيطة به قبل البدء في الاستدعاء، وهو الهراء الذي لم أفهمه يومًا.. أنا

لا أعرف شيئًا عن هذه الهالة.. فقط أعرف أن الاسترخاء الشديد يسهل علي القيام بالتحضير بهذا الأسلوب..

وصلت إلى حالة مرضية من الاسترخاء.. فبدأت أنادي الروح المطلوبة.. كنت أسمع صوت أنفاس سمير بطيئة منتظمة، فأدركت أنه دخل في حالة من الاسترخاء بدوره..

أواصل النداء على الروح، التي لو حضرت فإن المؤشر سيهتز تحت إصبعينا.. ثم يبدأ في الإشارة إلى الحروف أو الأرقام المكتوبة على اللوحة، مكونًا كلمات تجيب عن الأسئلة التي سنسألها إياها..

دقائق طويلة مرت ولم يتحرك المؤشر.. دقائق تكفي لأن أحكم على التجربة بالفشل.. تلك الروح لن تحضر..

فتحت عيني.. زفرت.. رفعت أصبعي عن المؤشر.. قلت لسمير:

. لقد انتهينا عند هذا الحد.

شيء من الراحة ارتسم على وجهه، فقلت مازحًا:

. حسنًا.. لقد نلت حريتك أخيرًا.

نهضت عن المائدة وأنا ألعن تلك الروح القوية.. الآن . إذا أردت أن أتصل بها . لم يعد أمامي سوى واحد من أمرين، كنت أتجنب القيام بهما.. إما أن أدعها تتقمصني.. أو أحاول دفعها للتجسد في مكان وجودها الدائم داخل ذلك الأسانسير..

قلت لسمير بابتسامة مغتصبة:

. سأعد لنا كوبين من الشاي على سبيل الاحتفال باعتزالك.

اتجهت إلى المطبخ وعقلي يتواثب خلفي. أدرك جيدًا خطورة تلك الروح، بعد أن اختبرت مدى غضبها في الأسانسير بالأمس؛ فهل يمكنني السيطرة عليها إن تقمصتني؟ أم هل يمكنني العودة لمواجهتها في الأسانسير مرة أخرى؟ المشكلة أنني أستبعد من تفكيري تمامًا فكرة أن أعتذر لأحمد فرغلي وأتجاهل الأمر برمته.. فطرد الأشباح هو الجانب الإيجابي في عملي. هكذا أقدم خدمات حقيقية للآخرين، فلا تستطيع أية عجوز شمطاء أن تخبرني مرة أخرى أن مصيري إلى جهنم!

عدت بصينية عليها كوبين من الشاي.. كانت الصالة فارغة.. نظرت عبرها إلى حيث الشرفة الصغيرة، فكان سمير هناك ينظر إلى الشارع شاردًا..

. الشاي يا سمير.

قلتها وأنا أضع الصينية على مائدة الطعام بجوار لوحة الويجا. عندها لفت انتباهي أمر ما. لقد تحرك المؤشر على اللوحة.. لا شك في هذا.. فقد تركناه كما هو في نقطة البداية أسفل اللوحة.. والآن أراه يشير إلى رقم "6".

اندهشت لوهلة.. أتكون الروح قد حضرت دون أن أنتبه لها؟ أم أن الأمر مجرد مصادفة.. ربما حركه أحدنا دون أن

ينتبه. ولكن نقطة تذكرتها جعلتني أستبعد هذا الاحتمال؛ إنه رقم ستة من جديد!

في الأسانسير سمعت الروح تقول:

. ستة..

على جدران الأسانسير رقم (6) محفور..

الشبح يغادر الاسانسير كل ليلة في الطابق السادس..

والآن المؤشر يشير إلى نفس رقم..

الأمر ليس صدفة إذًا.. الروح كانت هنا بالفعل..

. سمير لن تصدق هذا.

التفت إليه، فوجدته يقف منتصبًا فوق جدار الشرفة..

. ماذا تفعل يا.....؟ المجنون!

ولكنه قفز قبل أن يجيب صرختي..

***

لم يطل استجواب الشرطة لي، فإدلة الانتحار كانت حاضرة بقوة..

التاريخ النفسي لسمير . رحمه الله . منذ وفاة أسرته، من ناحية.. وشهادة أحد الجيران بأنه شاهد سمير وهو يقفز من تلقاء نفسه، من ناحية أخرى.

رسميًا يمكن القول إنني أفلتّ من توجيه تهمة القتل لي..

ولكن من قال إنني لم أقتله؟

ربما أقنعت تلك الأدلة الشرطة.. ولكن هل تنجح في اقناع ضميري؟

لقد قالها لي سمير قبل دقائق من وفاته..

"لقد قررت أن أترك هذا الجنون"

كان يحاول أن يخبرني برفضه مشاركتي تلك التجربة.. ولكن هل فشلت أنا في فهم قصده؟

بالطبع لا.. لقد فهمت ما ينطوي عليه كلامه، ولكنني لم أبال، فقد كنت في حاجة إليه.. لقد قدته إلى حتفه..

تلك اللعينة حضرت دونما ضجة.. اختارت أكثرنا هشاشة كضحية جديدة لها.. تسللت إليه، ونفذت لعبتها الأثيرة..

والآن يا سمير أنا لا أملك سوى محاولة الثأر لك..

"ما تفعله هذا سيلقي بك إلى جهنم.. النار هي مصيرك.."

كلا.. أنا لست كذلك..

يجب أن أطرد تلك اللعينة..

وسأثبت بهذا أن الجحيم ليس مصيري.

رقم "6"..

هذا هو مفتاح الوصول إليها..

في جيب قميصي وجدت الكارت الذي أعطانيه أحمد فرغلي، وفيه أرقام هواتفه.. طلبته لأسأله:

. من كان يسكن الطابق السادس وقت مقتل تلك الفتاة؟

تعجب لسؤالي في البداية، ولكنه أجاب:

. إحدى الشقتين كانت مغلقة تمامًا، بسبب سفر أصحابها إلى الخليج.. والثانية . وهي تلك التي زرناها . كان يسكنها حسن عوض رحمه الله، زوج مدام هاجر..

قلت له:

. احكِ لي عنه..

لم يفهم مغزى طلبي عندما قال:

. لقد كان طالبًا جامعيًا وقتها.. كان من بورسعيد وأتى ليدرس في جامعة الإسكندرية.. والده استأجر له تلك الشقة ليعيش فيها طوال فترة دراسته، ولكنه قرر البقاء في الإسكندرية إلى الأبد؛ لولا أن واتته فرصة للعمل في الخليج. أغلق الشقة واستقر هناك لسنوات طوال، تزوج من مدام هاجر في سن كبير - كان قد تجاوز الأربعين - أخذها معه إلى غربته، قبل أن يتوفاه الله بعد ولادة ابنه تامر بقليل. لترجع الأرملة والابن ليسكنا الشقة..

سألته مندهشًا:

. وكيف لم تشتبه الشرطة وقتها في شاب يعيش وحده؟

أجاب:

. ومن قال لك إن هذا لم يحدث؟ لقد تم استجواب حسن لأيام.. ولكن لم يكن ضده شيء.. كما أنني شهدت معه، فقد كان صديقي . حيث كنا في عمر واحد تقريبًا . وقد كان معي بالفعل يوم وقوع الجريمة..

ساد الصمت لفترة قبل أن يتساءل:

. ولكن لماذا تسأل؟

أجبته:

. أعتقد أن تلك الفتاة قتلت في الطابق السادس..

سألني:

. وما علاقة هذا بحسن؟

قلت له:

. سأشرح لك تخيلي الخاص عندما آتي إليك..

***

محاولة أخيرة

في رواق الطابق السادس، وقفنا نتبادل الحديث بصوت خافت، خشية أن نلفت انتباه السكان. كنت أشير إلى باب الأسانسير الخارجي . الذي يبدو من خلفه المجرى الفارغ للأسانسير. وأقول:

. الأسانسير كان متوقفًا هنا عندما قتلت تلك الفتاة.

قال لي أحمد فرغلي:

. وما الذي يجعلك واثقًا هكذا؟

قلت له:

. رقم ستة.. هذا الرقم موجود في كل مكان، وله أهمية خاصة عند الشبح.

تساءل:

. ربما يرمز لأي شيء آخر.. ليس بالضرورة أن يرمز للطابق السادس.

بدأت أشرح له:

. تلك الفتاة طعنت بالسكين داخل الأسانسير. ظهرها لجداره الداخلي، ووجهها مواجه لبابه.

أمسكت بكتفيه وحركته لكي يقف في نفس الاتجاه، فأطاعني، حتى أوقفته موليًا ظهره لباب الأسانسير الخارجي، وميممًا وجهه شطر الحائط المواجه له من رواق الطابق السادس..

. أي أنها كانت تقف هكذا.

ثم تحركت من أمامه، لكي يكشف كامل الحائط المواجه..

. والآن.. من مكانك هذا.. ماذا ترى؟

أشار إلى الحائط قائلاً:

. أرى حائط.

أغاظني رده، فقلت:

. هذا الحائط يا صديقي خال إلا من شيء واحد.. أتدرك ما هو؟

عندها التمعت عيناه، فأدركت أنه فهم ما أشير إليه.. فأمام باب الأسانسير مباشرة، تلك اللوحة المعدنية المثبتة فوق الحائط، منقوشًا عليها رقم (6) مشيرًا إلى رقم الطابق..

. هذه اللوحة، وتحديدًا ذلك النقش، هو أخر ما رأته القتيلة، فانطبع في ذاكرتها، وبات هو محور وجود الشبح. لذا أنا كلي ثقة من أن القتل تم هنا.

شرد قليلاً قبل أن يقول:

. ولكن هذا لا يعني أن قاتلها يسكن . بالضرورة . نفس الطابق.

قلت له:

. هذا مجرد افتراض.. لاحظ أن القتل تم وباب الأسانسير مفتوح، وإلا لما تمكنت من رؤية اللوحة على الحائط بوضوح.. وهذا ما يدفع إلى عقلي ذلك التصور.

صمتّ قليلاً مستجمعًا أفكاري، ثم قلت:

. تلك الفتاة كانت حافية القدمين حسب أقوال الصحيفة.. تلك الفتاة كانت تهرب من شخص ما.. لو كان هذا الشخص يسكن الطابق الثالث كما هو حال الشاب المشتبه به، فما الذي يدفعها للصعود إلى الطابق السادس؟! المفترض أن من يحاول الهرب سينطلق إلى الشارع. لذا، فالأقرب للمنطق أنها كانت تهرب من شقة في نفس هذا الطابق.. انطلقت إلى الأسانسير.. دست نفسها بداخله وهي في حالة ذعر.. ولكن

قبل أن تضغط أزراره أدركها من يلاحقها.. وقبل أن تصرخ، كان قد سدد إلى صدرها ثلاث طعنات نافذة.

تعلقت عينا أحمد فرغلي في وجهي لفترة، وبدا على ملامحه استغراقه في تفكير عميق..

. ولكن هذا مستحيل.. قلت لك إن الطابق السادس لم يكن يسكنه سوى حسن عوض، وقد كان معي ليلتها. ذهبنا إلى السينما، ثم تسكعنا قليلاً في شارع صفية زغلول.

عندها لم أجد ما أقوله، تعسر علي أن أتهمه بالكذب.. لذا قررت أن أشرع في تنفيذ مخططي..

. دعني إذًا أستجوبها.. علني أعرف منها الحقيقة.

***

ما الذي يدفعني إلى ارتكاب تلك الحماقة؟!

أهي رغبة انتحارية؟

هل فقدت الحياة معناها عندي؟

لماذا أستشعر هذا الضياع؟

أنا الذي عشت حياة ملعونة وما اكترثت..

مالي وتلك الكلمات تدوي في أذني بلا توقف..

"ما تفعله هذا سيلقي بك إلى جهنم.. النار هي مصيرك.."

لقد قتلت شابًا في مقتبل العمر..

شاب وثق فيَّ واعتبرني والده..

وهذا ما يعجزني عن الفهم..

هل لما أفعله أية علاقة بالشبح حقًا؟

أم أنني فقط أعاقب نفسي بإسراع سعيها نحو النهاية؟

على كثرة الأسئلة التي تعصف بي، كنت أشعر براحة لقرب وقوفي على الإجابة.

فإما الخلاص أو الموت.

الثأر.. أو الهلاك.

***

وقفت أنظر إلى الفراغ الأسود الذي يملأ ذلك الصندوق الخشبي..

توترت أعصابي، فدفعت عضلاتي للانقباض بقوة، فزاد ضغط أصابعي على ذلك المفتاح البارد في يدي..

نظرت إلى ما وراء كتفي.. كان صاحب البناية يرتجف توترًا. قلت له:

. مهما حدث.. مهما شاهدت، ومهما سمعت.. لا تفتح باب الأسانسير.

زادت كلماتي وجهه شحوبا، وتراجع خطوتين للوراء، حتى كاد يغادر البناية..

كنا قد أمرنا البواب أن يطفئ أنوار المدخل، ففعل قبل أن يدخل حجرته ويوصدها خلفه..

لم أكن أريد أن يشتتني أي ضوء.. كنت أبغي الظلام الدامس..

أزحت الجنزير.. فتحت بابي الأسانسير.. ذلك الظل المجسم اللعين مازال هناك.. أنا أعرف أن هذه أنت، فلا داعي للمراوغة.. فلتكوني شبحًا طيبًا وتتجسدي لي..

أغلقت البابين خلفي.. الظلام داخل الأسانسير هذه المرة بات كتلة واحدة مع ظلام مدخل البناية.. بسرعة . وقبل أن تتمكن مني أعراض الهلع مرة أخرى . أخرجت القداحة من جيبي، وأشعلت تلك الشمعة في يدي. غمر ضوء الشمعة ظلام الأسانسير، بوهجه الذي يؤدي رقصة شيطانية مع الإيقاع المتسارع لأنفاسي التي بت أجاهد لالتقاطها..

نظرت نحو الموضع الدائم لذلك الظل، فوجدته كالعادة خاليًا..

بدأ العرق البارد يغرق جسدي، وبدأت أطرافي ترتعش، عندما أخرجت من جيبي تلك المرآه الصغيرة، ووضعتها أمام عيني..

قلبي يدق بعنف، وأعراض الكلستروفوبيا تهاجمني وتشتت من تركيزي، في حين أن التركيز هو كل ما أحتاج إليه الآن..

أركز على صفحة المرآة، التي تعكس وجهي المرسوم بملامح شيطانية بفعل لهب الشمعة القريب منه. أركز نظري في تلك المساحة المظلمة خلف كتفي، نفس المساحة التي كنت أرى فيها ذلك الظل.. لو كنت محظوظًا، فسأتمكن من التواصل معها..

أركز أكثر.. تلك الأصوات من جديد.. نفس ذلك الصراخ الأنثوي البعيد. تلك الفتاة ماتت دون أن تصرخ، لذا فهي تفعل الآن..

أركز أكثر.. أقاوم تخاذل الأطراف، ورغبة جسدي في الانهيار..

اظهري عليك اللعنة..

أناديها باسمها.. مرة تلو الأخرى..

الأصوات تتعالى.. تبدو وكأنها همسات في أذني، ولكنها ليست كذلك.. أعرف أنها بعيدة. ولكنها الآن تتعالى بحق..

أستطيع أن أميز ما خفي عني منها.. إنها ليست صرخات، إنها ضحكات.. ضحكات طويلة ماجنة..

آمرك أن تظهري الآن..

فجأة يملأ وجهها الفراغ خلف كتفي..

أنفاسي تتسارع إلى درجة مميتة.. وذلك الوجه الذي أطالعه في المرآة لا يمكن أن يكون سوى وجه الموت ذاته.. تلك النظرة الكارهة تحمل كل غضب الدنيا..

. ماذا تريدين؟

أقولها عبر المرآة، دون أن أنظر لها مباشرة.. أقولها بصوت يتهاوى، وإرادة تنهار..

تصرخ بصوت مخيف:

. أريدك.

عندها يتحرك الأسانسير.. يبدأ رحلة صعوده..

. ماذا تريدين؟ دعيني أساعدك.

تبتسم ابتسامة لم أر أشرس منها من قبل.. إنها شيطان. أريد أن أخرج من هنا.. اللعنة، ماذا فعلت بنفسي؟

. ماذا تريدين؟ تكلمي.

تصرخ من جديد:

. سكين.. سكين.. معه سكين..

أقول:

. من هو؟ من فعلها؟

تواصل الصراخ:

. دم.. دم.. الكثير من الدم..

هنا يتوقف الأسانسير عند الطابق السادس.. بابه الداخلي ينجذب ليفتح إلى الداخل، وأمامي تظهر اللوحة التي تحمل الرقم (6)..

. ستة.. ستة.. ستة..

ثم تبدأ في الصراخ بصوت حاد..

. اصمتي..

أصرخ بصوت أعلى:

. من قتلك؟ أخبريني.

تكف عن الصراخ فجأة.. نظرتها الشرسة تعود لتملأ انعكاس صورتها في المرآة.. تقول بفحيح غاضب.. بنبرات صوت رجولي مألوف:

. أنت..

عند هذه الكلمة، لا أدري متى ولا كيف تحولت ملامح وجهها المخيف إلى ملامح وجه سمير..

***

"اتركني.. قلت لك اتركني.."

"اخرسي يا حمقاء.. أنا أفعل ما أريد.."

"أنت ثمل.."

"وفيما يضايقك هذا؟! أنت لم تأتِي معي إلى هنا لكي نتحدث في أمور الدين على ما أظن.."

"أنت لست في وعيك.. دعني أرحل.."

"اسمعي.. أنت مجرد عاهرة.. أنا أدفع لك لكي أفعل ما أريد.."

"خذ نقودك ودعني لحالي.. أرجوك"

"ليس بإرادتك.. أنت الليلة ملكي"

أصرخ بكل قوتي:

. هذا يكفي... كفى.

هذه المرة أسقط على الأرض.. حمل رهيب يثقلني.. نار تشتعل في أعماقي..

الآن أنا أعرف يقينًا ما حدث.. عليَّ فقط أن أغادر هذا المكان..

يجب أن أنهض..

عضلاتي لا تطيعني..

تلك اللعينة هناك.. هناك في مكان ما بداخلي..

ولكن كلا، أنا لست بهذا الضعف أيتها الحمقاء.. أنا أستطيع أن أقاومك..

بدفعة كبيرة أمد يدي إلى مقبض الباب الخارجي للأسانسير.. أدفعه وألقي بجسدي للخارج..

ملابسي تبتل من شدة العرق.. رأسي يكان ينفجر.. أتلوى على أرض رواق الطابق السادس متألمًا..

إنها قوية.. أشعر بها.. لديها إصرار محموم على تملك جسدي..

. لن تحصلي عليّ أبدًا.

أتذكر الشمعة التي كانت في يدي.. أراها ساقطة على أرضية الأسانسير، وشعلتها لم تخبُ بعد..

حرب شعواء أخوضها دفاعًا عن إرادتي..

. اخرجي.. دعي جسدي واخرجي.

مع صرختي، فتح باب الشقة المجاورة. تامر بدا على عتبته يتأملني مذهولاً. كان بإمكاني أن أطلب مساعدته، ولكنني رأيت ملامح سمير تتشكل على وجهه.

. آمرك أن تخرجي.

كانت أقوى من أي شيء واجهته من قبل.. تقتحمني بعنف.. جسدي يتلوى.. يؤلمني وكأنه يحترق.. تفلت مني صرخة ألم للمرة الأولى. يجب أن أنفذ الخطوة التالية، قبل أن تستحوذ على كامل وعيي..

في حالات اليأس، لا مفر من تكرار الأخطاء..

نظرت إلى تامر.. وبآخر قطرات الوعي في عقلي ناديته..

. ساعدني.

***

المشهد كان مخيفًا.. الرجل كان يتلوى، وكأن آلام الكون تجري في جسده..

من صراخه المستمر بأمر "اخرجي"، فهمت أنها بداخله الآن..

لا شيء يمكنني فعله الآن سوى العودة إلى داخل الشقة، موصدًا بابها..

ولكنه ينظر إليَّ.. يقول:

. ساعدني.

هل يمزح؟! ماذا بمقدوري أن أفعل؟ هو الخبير في هذه الأمور، ويقاسي كل هذا العذاب، فماذا عني؟

عاد يقول من بين لهاثه:

. جيب البنطلون الأيمن.. زجاجة صغيرة.. أخرجها حالا.

كنت أخشى ملامسة جسده.. ما أدراني أن ما به لن ينتقل إليَّ باللمس؟

. لا تخش شيئًا.. أنا أسيطر عليها مؤقتًا.. فقط ساعدني، فأنا لا أستطيع الحراك.

كانت انتفاضاته تزداد قوة. تأملت جسده، فبدا لي جيب بنطاله الأيمن قريبًا. طرف الزجاجة خرج منه لعنف حركاته.. لن أبذل جهدًا كبيرًا كما بدا لي..

اقتربت بحذر.. صرخ في:

. أسرع.

انحنيت بسرعة أختطف الزجاجة من جيبه.. كانت زجاجة دواء مملوءة بسائل ما. أخرجتها.. ولكن لم أبتعد بها كثيرًا.. يده قبضت على ساعدي بقوة..

رفعت عيني إلى عينيه لحظتها.. لم تكن عينيه.. كانت عينيها..

صرخت..

القبضة تزداد قوة على ساعدي.. صرخت ثانية، ولكن من الألم هذه المرة..

للحظة ذهبت عينيها وعادت عينيه.. صرخ:

. قاوم يا تامر.. أنت أقوى منها إن تخليت عن خوفك.

أفقت لنفسي.. بدأت أجذب يدي بقوة.. الألم ازداد، ولكنني اقتربت من التحرر..

جذبة.. ثم جذبة ثانية.. تحررت يدي..

قفزت خطوتين للخلف مبتعدًا عن مرماها..

من فم الرجل صدرت صرخة أنثوية..

قبل أن يستعيد صوته ويصرخ بي:

. اقذف الزجاجة في قلب الأسانسير.. دعها تتهشم فوق الشمعة، وعد إلى بيتك واغلق بابك.

لم أفهم من كلماته سوى أن مهمتي على وشك الانتهاء..

بسرعة ألقيت الزجاجة كما أمرني..

تهشمت ليتناثر اللهب في كل مكان..

لثانية تأملت تصاعد النار مفتونًا.. أفقت على صرخته..

. اهرب.

كان ينهض عن الأرض.. لم أشا أن أعلم إلى أين يذهب..

قفزت عبر باب الشقة، وأغلقته خلفي.

***

نهايـة

ما الذي يدفعني إلى ارتكاب هذه الحماقة؟!

أهي رغبة انتحارية؟

هل فقدت الحياة معناها في عقلي؟

لماذا أستشعر هذا الضياع؟

أنا الذي عشت حياة ملعونة وما اكترثت..

مالي وتلك الكلمات تدوي في أذني بلا توقف..

"ما تفعله هذا سيلقي بك إلى جهنم.. النار هي مصيرك.."

لقد قتلت شابًا في مقتبل العمر..

شاب وثق فيَّ واعتبرني والده..

وهذا ما يعجزني عن الفهم..

هل لما أفعله أية علاقة بالشبح حقًا؟

أم أنني فقط أعاقب نفسي بإسراع سعيها نحو النهاية؟

أفكر وأنا أتطلع إلى السيارات تقطع شارع فؤاد في اتجاه واحد..

المشهد فاتن من هذا الارتفاع..

أفكر أن الخطوة التالية هي الصعود فوق الجدار الواطئ المحيط بسطح البناية..

ماذا دهاني..؟

أشعر بروحي مكبلة بأغلال من نار، وملقاة داخل زنزانة فولازية، تحيطها ملايين الأسوار العالية..

جسدي لا تحركه أوامري.. أنا لست أنا..

للمحات خاطفة، أستعيد ذاتي، فأقول لنفسي إن هذا هو بالتأكيد تأثير تمكن الشبح من جسدي..

وأحيانًا ينطلق عقلي إلى أبعاد مغايرة، فيهيئ لي أن إرادتي لم يسلبها سوى رغبة دفينة في الموت. يقول لي إن عقلي الباطن هو من استحوذ عليَّ.. هو من يزين لي تلك الفكرة مدعيًا أنني لست مسؤولاً عنها، وإنما ذلك الشبح اللعين الذي استحوذ على جسدي..

للحظة، أقدم مستمتعًا، ثم أعود لأحجم خائفًا..

أتطلع إلى الشارع أسفل مني، فأكتشف أنني ماعدت أعرف من أنا في هذه اللحظة..

يتناهى إلى أسماعي دوي سيارات الإطفاء قادمة بالسرعة المتوقعة، حيث لا يفصل بين البناية ومركز الإطفاء الرئيسي بالإسكندرية سوى أمتار معدودة..

أسمع صوت الباب المؤدي إلى السطح يفتح، ألتفت، فأجده صاحب البناية.. يقدم خطوة ويحجم الأخرى.. يتطلع إليَّ بنظرات متوترة خائفة.. أعرف أنني الآن أتطلع إليه بتلك النظرة الغاضبة المخيفة، أتطلع إليه بعينيها. ولكن حتى هذا لست واثقًا منه.. فربما تكون تلك النظرة المخيفة مرسومة في عيني أنا.. ألم أعلم منذ دقائق الدور الذي لعبه بأعصاب باردة في جريمة قتل بشعة..

. لقد عرفت كل شيء..

أقولها، فيزداد توتره:

. عرفت ماذا؟

. عرفت كيف ماتت تلك الفتاة.. عرفت أن ما ظننته كان صحيحًا كله.. حسن عوض هو من قتلها.. كان مخمورًا عندما قابلها في بار فندق سيسل واصطحبها إلى هنا.. أراد معاشرتها بسادية.. لتتخلص منه ضربته في منطقته الحساسة وهربت.. جن جنونه وتبعها إلى خارج الشقة مستلاً سكينا.. ثم كان المشهد الذي تخيلته

تمامًا.

عندما صمتّ، لم يفتح فمه بكلمة.. أشاح بوجهه بعيدًا متجنبًا تلك النظرة في وجهي، قبل أن يقول بصوت أضاع التوتر معالمه:

. أنت أحرقت الأسانسير.

ابتسمت قائلاً:

. أجل، أحرقت الأسانسير.. ذلك التابوت الضيق الذي كان يخفي جريمتك طوال تلك السنوات.. والآن صار عليك أن تواجهها، كما قررت أنا أن أواجه جريمتي.. فلا يخفى عليك أنني قد عرفت دورك في الأمر.

بسرعة صاح في وجهي مسقطًا كل الأقنعة:

. أنا كنت أنقذ صديقي.

صرخت بوجهه:

. أنت ساعدت مجرم على الإفلات بجريمته بشهادة زور.

صرخ بدوره مجاريًا جو التوتر:

. لقد كانت مجرد عاهرة.. وهو شاب من عائلة محترمة.. كانت حياة أهله ستتدمر إن حدث له مكروه.

قلت له مستشعرًا اشمئزازًا لا حدود له:

. أنا تسببت دون قصد في قتل شاب، ومع هذا لا أنام من الشعور بالذنب.. وأنت اشتركت عن عمد في قتل فتاة بدم بارد، ومع هذا تتجاهل الأمر وتعيش حياة عادية.

هنا تحول توتره وغضبه إلى شراسة صريحة وهو يقول:

. اسمع، أنت لست هنا لكي تعظني.. أنت أحرقت عن عمد هذا الأسانسير، وتلك جناية أستطيع أن أقدمك للشرطة بسببها.. وهناك يمكنك أن تصرخ بهذا الحديث كما تشاء، ولتبحث عمن يصدقك. ولكنني لن أفعل.. سأدعك ترحل، على ألا تظهر في حياتي مرة أخرى.

تأملت وجهه المرسوم بالقسوة، وعينيه اللتين تطلقان الشرر.. ثم ابتسمت قائلاً:

. الأمر ليس بيدي.. فأنا لست وحدي في هذا.

عاد التوتر يحفر وجهه قبل أن أضيف:

. إنها بداخلي الآن.. لقد سكنني الشبح.

قلتها وانقضضت عليه.. باغتته انقضاضتي، فلعب عامل المفاجأة دورًا . مع الفارق الطبيعي في الحجم بيننا، والذي يعود لصالحي . في أن ينتهي الأمر بدون معركة.. فقط لكمتان قويتان لذقنه، كانتا كفيلتين بإصابته بدوار يعجزه عن التوازن والحركة..

سحبته خلفي حتى جدار السطح وأنا أصرخ فيه:

. والآن دعنا نضع سويًا حدًا لعذابنا هذا.. فكلانا يعد قاتلاً.

ألقيت بجسده إلى الجدار، تمهيدًا لدفعنا سويًا عبره، فصرخ فزعًا:

. لماذا تفعل ذلك؟

توقفت لبرهة مفكرًا..

أنا لا أعرف..

فربما أكون مسكونًا بشبح، وربما لا..

ولكن قوة الدفع بداخلي أقوى من أن أعصاها..

. ألم تفهم بعد؟

رأيت دموعه تسيل وأنا أصيح:

. لقد فقدت السيطرة على ذاتي..

هممت بإطاعة النداء الداخلي..

ولكن فجأة، قررت أن أتوقف مرة أخرى للتفكير..

وللمرة المليون تساءلت:

. ما الذي يدفعني إلى ارتكاب هذه الحماقة؟!

***

كيف يمكن أن يتسبب إحراق الأسانسير في القضاء على الشبح؟

ربما الرجل بالفعل خبير في هذه الأمور.. ربما يعرف ما يفعل. ولكنني لم أقتنع.

رائحة الدخان كانت تعبئ الشقة بعد دقائق من نجاح رجال الأطفاء في إخماد الحريق. من الشرفة كنت أشاهد سيارة الإطفاء تبتعد. تلحق بها سيارة الإسعاف حاملة جثتين لرجلين سقطا معًا من سطح البناية..

سيارة الشرطة لم تزل رابضة أمام مدخل البناية، متوعدة بساعات مقلقة من التحقيقات، والأجواء المتوترة..

أمي بجواري كانت تردد:

. استر يا رب.. استر يا رب..

كل هذا لم يكن يعنيني.. فقط ذلك التساؤل هو ما كان يشغلني بإلحاحه..

هل ذهب الشبح أخيرًا؟

هل كان الرجل يعرف حقًا ما يفعله.. أم فقط كان يدعي؟

لم تكن ثمة طريقة للتأكد سوى الانتظار..

منتصف الليل لابد وأن يأتي.. ومعه المعرفة.

في الموعد اليومي المعتاد، وقفت أمام باب الشقة..

غالبت توتري.. ووضعت عيني على العين السحرية..

الرواق كان خاليًا..

انتظرت..

الدقائق طالت..

كان عليَّ أن أتاكد..

المزيد من الانتظار..

يمكنني أن أقول الآن إنها فوتت الموعد الذي لم تفوَّته يومًا..

ربما رحلت.. لقد كان الرجل يعرف ما يفعله..

طردت انفعالي، وقررت الاكتفاء..

ابتعدت عن العين السحرية..

استدرت..

لأجدها خلفي..

الفهرس

صَفِيَّة	5
رَسَائِل	35
يوچينيا	67
اَلشَّقَّة	97
جُنُونٌ مُؤَقَّت	135
أَلْبُوم صُـوَر	165
الروحانى	201

أصدارات أخرى للدار

- كيغار .. منى سلامة
- إيماچو .. دعاء عبد الرحمن
- رحلة الـ 100 عبيط .. عمر عباس